مَوْسُوعَةُ فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ القَصَصِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة القصص

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة القصص

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ
أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ
وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

ابتدأت سورة القصص بِمْثِل ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة هود، وسورة يوسف، وسورة النمل وغيرها من بعض السور. قال تعالى ﴿طسٓمٓ﴾ وهي ثلاثة أحرف من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، ونؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها.

ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١]

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[٢]

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

(٢) المرجع السابق (١٠٩/١)

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف(١) وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم لما يُراد تعليمه إياه، وإخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله تعالى سورة القصص ببعض الحروف المقطعة لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، بما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بعد ذلك يُشيد سبحانه وتعالى بآيات القرآن الكريم، والثناء عليها بما اتصف به كتابه من كمال الأوصاف العظيمة، فانتقل السياق الرباني إلى بيان وتأكيد وضوح كتابه القرآن الكريم وضوحاً بَيّناً إلى درجة الإعجاز في فصاحته وبلاغته، ووضوح معانيه ودلالاته، ودقة هديه وأهدافه وجميع أحكامه وشرعه المستقيم، فقال تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ فهذه آيات القرآن المبين الواضح، وبالتالي فهو الكتاب الْمُحْكَم. فهو مُحكم من الباطل، والخلل، والاختلاف، والتعارض، وأن أحكامه واضحة جلية، قد أوضح فيها سبحانه وتعالى الحلال والحرام، وفَصَّل الحدود والأحكام، وأوضح فيه الأخلاق والإحسان. وقد وصفه تبارك وتعالى بالبائن أي: الظاهر وضوحه ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي: الواضح من كل وجه، فدلالة ﴿ٱلْمُبِينِ ﴾ تفيد الإظهار. وهو من أبان وأظهر. وقد استجمعت دلالة ﴿ٱلْمُبِينِ ﴾ كمال صفة الوضوح، الذي انتفى به النقص والغموض والخلل، فاستحق كمال الثناء لحقيقة ما تضمنه القرآن الكريم من قوة البيان، وجزالته، وبلاغته، ومضمونه وأهدافه، وأحكامه وتشريعه الذي استوفى حاجات العباد بأعلى غاية الوضح. فقد تضمن الإبانة التامة لفظاً ومعناً وسياقاً، مع انتفاء الخلل والتعارض والاختلاف والاختلال عن هذا الكتاب العظيم، فليس بعد هذا البيان أبلغ منه.

ومن غزارة المعنى أن مكونات هذه الآية تعطي العديد من الدلالات المتنوعة، بالرغم من قلة عدد كلماتها، فبدأ البيان الكرين باسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ التي تشير إلى آيات القرآن الكريم بكامله، ومنها آيات هذه السورة ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ والكتاب هو القرآن العظيم، وفي نفس الوقت نجد اسم الإشارة ﴿تِلْكَ ﴾ يشير إلى آيات هذه السورة باعتبار موقع ﴿تِلْكَ ﴾ من السورة، قال الإمام الشوكاني

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

رحمه الله تعالى عن اسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ في سورة يونس: إنها إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والتبعيد للتعظيم(١) وأما باعتبار أنها بمعنى: هذه، فتكون بمعنى هذه آيات القرآن. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أن ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى هذه(٢) فتشمل جميع آيات الكتاب الكريم، وكلا الوجهين صحيح الدلالة، مما يفيد عمق البناء البلاغي للنص الكريم، بحيث أعطى دلالتين، أو وجهين صحيحين، إذ لا تضاد بينهما، وهذا من الإعجاز البياني في القرآن الكريم. وفي اسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ ما يفيد التعظيم والتفخيم، كما فيه كذلك لفت الانتباه وشده لمضمون الكتاب، ليحصل المزيد من التأمل والتفكر في آيات القرآن الكريم، فإنه يتبين لكم أيها المخاطَبُون من عمق معانيه ودلالاته، ومقاصده وتشريعه، وقوة بيانه أنه مُنَزَّلٌ من عند الله تعالى، مما يستلزم التصديق به، والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً من رب العالمين، أنزل عليه هذا القرآن العظيم.

وفي قوله تعالى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ بيان أن تلك الآيات التي يتلوها الرسول صلى الله عليه وسلم على الناس، هي آيات القرآن، لأنها بعض من القرآن. وأيضاً بيان بأنها جميعاً من الكتاب الكامل الوافي، القرآن العظيم، ولذلك وردت إضافة الآيات للكتاب المبين. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين: على سبيل التفخيم لها، والتعظيم، لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه(٣) وقد ذكر سبحانه وتعالى هذا القرآن باسم الكتاب، وأن صفته أنه مبين ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ وإذا ذُكِر الكتاب فإن المقصود به القرآن العظيم: الكتاب الكامل المبين، المتصدر في جنسه، فآيات هذا الكتاب بلغت منتهى الكمال، وأن مُنتهى كمال الكتاب دليل على منتهى ذروة كمال آياته. كما أن الكتاب اسم جنس، يدل على كماله.

ومن دلالة قوة إعجازه أن هذا الكتاب ﴿ءَايَٰتُ﴾ وليس آية واحدة، بل ﴿ءَايَٰتُ﴾ كثيرة، ومتعددة، ومتنوعة فيما تناولته. ثم عَرَّف سبحانه وتعالى الآيات بأنها ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فإنها آيات القرآن، التي تَكَوَّن منها هذا الكتاب العظيم، الواضح الْمُبَيّن ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الذي أُنزِل على رسوله صلى الله عليه وسلم. بما يفيد كمال محتواه، وعظيم دلالاته ومقاصده، ونظمه، إذ أصبح بمجموع آياته كتاباً متكاملاً في مضمونه ومحتواه من كل وجه. وفيه تقرير بأن هذه الحجج التي قد تَكَوَّنَ منها الكتاب المنزل على رسوله صلى

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٢١/٢)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٤/١٣، ١٦٤)
(٣) الزمخشري، الكشاف (٣٤٤/٣)

الله عليه وسلم، والتي هي من حروف العربية التي منها ﴿ طسٓمٓ ﴾ هي مما تعرفونه ولا تنكرونه، بما يفيد بيان قوة معناه ومبناه الذي أنتم عنه عاجزون.

ثم بعد بيان عظمة القرآن الكريم بأبلغ البيان وأجزله، ينتقل إلى الإخبار بقصة موسى عليه الصلاة والسلام، وفرعون ﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ استهل البيان بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ ﴾ أي: نقرأ عليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال جبريل بما أمرناه به. ووردت التلاوة مباشرة للرسول صلى الله عليه وسلم من الله تعالى ﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ ﴾ لإفادة رفعة منزلة المباشرة للتلاوة، فهي كما قالها سبحانه وتعالى، فما جبريل إلا ناقل أمين. وفيها إفادة قوة التزكية لجبريل وللرسول عليهما الصلاة والسلام. ووردت القراءة بلفظ التلاوة ﴿ نَتۡلُواْ ﴾ التي تفيد: القراءة المرتلة والمجودة والمتتابعة. وجاء بأسلوب التخصيص ﴿ عَلَيۡكَ ﴾ ليفيد أنك المعني أولاً: وغيرك تبع لك، فيزداد بها عليه الصلاة والسلام علماً بالحجج والبراهين، وتثبيت الفؤاد. كما أن في التخصيص رفعة لمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك ليكون هذا القصص حجة لك، وآية على نبوتك، وأنك رسول الله سبحانه وتعالى. ولتكون تقوية لإرادة النبي صلى الله عليه وسلم مما يلاقيه من قومه، وذلك بأن غيرك من الأنبياء واجهوا ما تواجه. ولتكون دروساً ومواعظاً للناس على مر العصور والأزمان.

ثم عين تبارك وتعالى موضوع ما يتلوه على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ شيئاً من أخبار موسى عليه السلام مع فرعون. وورد البيان بأسلوب التبعيض ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ ﴾ فليس جميع أخبار موسى وفرعون بل ﴿ مِن نَّبَإِ ﴾ وهو الخبر العظيم الذي يلتفت الناس إليه لقوة أحداثه، ووصف سبحانه وتعالى هذا الإخبار أنه ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي: بالصدق كما حدث، والذي لا ريب فيه. ثم أوضح تبارك وتعال الهدف والغاية من هذا القصص، وكذلك بيان نوع الذين ينتفعون بهذا القصص ﴿ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ فغاية القصص لقوم ينتفعون به. أي: يصدقون بالقرآن أنه من عند الله تعالى بما يفيد أن من لا يؤمن به فلن ينتفع بآياته. وكذلك يكون لقوم شأنهم الإيمان بالحق إذا وصل إليهم، فنفوسهم لا تمانع من قبول الحق، فليسوا من المستكبرين والمتعالين على الحق. قال السعدي رحمه الله

تعالى: إليهم يُساق الخطاب، ويُوجه الكلام، حيث أن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: قوم الإيمان شأنهم وسجيتهم[٢] مما يفيد أن من تمكن الجحود من قلوبهم، من المتكبرين والمتغطرسين في غيهم، فإنهم يعاندون ويكابرون، فلا ينتفعون به. وهذا يفيد: أهمية التواضع للحق، وقبوله، وأن على الإنسان أن يروض نفسه على قبول الحق، وأن ينأى بنفسه عن التكبر والاستعلاء، فهو المانع من قبول الحق. كما أن في قوله تعالى ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ مدح وثناء للمؤمنين، إذ هم المستهدفون، وهم الذين يزدادون به انتفاعاً مما فيه من العلم والحكمة.

ثم بدأ السياق الكريم ببيان ما كان عليه فرعون من الفسق والجبروت ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وتم استفتاح البيان بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ لتؤكد وتعزز حقيقة ما بعدها من البيان، وذلك من أجل إبراز عظمة النبأ ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ﴾ إن هذا المدعو فرعون ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مستعلي على الناس. فأبرز صفاته التعالي على غيره، بما يفيد استضعافه وامتهانه لغيره. وجاء وصف علوه بأنه عام، مطلق ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو استعلاء عام، يستوعب جميع أنواعه، وصوره ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أينما حل وارتحل في الأرض فإنه يفسد فيها باستعلائه، وورد مكان استعلائه أيضاً عاماً ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليستوعب كل موقع يحل فيه من الأرض، فلم يخصصه البيان بأرض مصر، لإفادة المبالغة التي تصوير ووصف حاله بأدق البيان وأكمل الوصف. فهو متلبس بالتكبر والاستعظام. فهو استعظام شامل لنفسه وفكره ورأيه، وفي كل شأن من شؤونه، فلا يرى إلا ما يراه، سواء كان خطأً أو صواباً. مما يبين ذميم هذه الخصلة من أي شخص كان.

والصورة الثانية له ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ أي: فرقهم فِرَقاً في خدمته، وتحقيق مطالبه، وتشتيت أمرهم وشأنهم. وتدل صفة ﴿شِيَعٗا﴾ على أنه جعلهم أحزاباً، وكل حزب يتشيع لمناصرة ذاته ضد غيره، وكذلك كونهم شيعاً ما يدل ويفيد أنه صخرهم لمناصرته بالتفرق والتشتت والتضاد فيما بينهم، بحيث كل فرقة تَدَّعِي أن غيرها مخالف لمناصرتها، ومناصرته. وفي ذلك التدبير الشنيع منه ما يحقق النزاع بينهم، وإشغالهم

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٤)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٣٩/٨)

فيما بينهم عن جبروته وتغطرسه. مما يدل على قوة طغيانه حتى ولو كان على حساب خَلْق الفتن والعداوة بين أهل مملكته.

والصورة الثالثة لفرعون: أنه ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي: يستضعف طائفة واحدة من تلك الفرق التي صنعها، وهم بني إسرائيل، باستعبادهم، فجعلهم عبيداً للقبط. فيسومونهم بالعذاب والإذلال، وتكليفهم بأصعب الأعمال وأشقها، وهم ذلك الوقت خيار أهل زمانهم كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم(١) وقال السعدي رحمه الله تعالى: وتلك الطائفة هم بني إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين، الذي ينبغي له أن يكرمهم ويجلهم، لكنه استضعفهم(٢) وأوضح تبارك وتعالى منهج استضعافه واستعباده لهم فيما سيأتي بإذن الله تعالى.

الصورة الرابعة ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ فيقتل ذراري بني إسرائيل من الذكور، خوفاً من الغلام الذي يخاف أن يكون سبباً لهلاكه، وزوال ملكه عل يده، كما كان متداولاً بينهم. والصورة الخامسة إبقاء الإناث من بني إسرائيل ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: يستبقيهم للإذلال والخدمة الشاقة من الأعمال. وهي الصورة الخامسة من قوة الفساد في الأرض. ثم يخبر الله تعالى بما يستحقه من الوصف ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ إن فرعون كان من فئة المفسدين، الذين لا يأتي منهم إلا الفساد في الأرض. فإنه ممتنع منه وعنه حصول الخير، فإن منهج المفسد هو الأمر بالفساد، والنهى عن المعروف، ومحاربة الفضيلة، ونشر الرذيلة.

ثم يخبر الله تعالى عن حكمه ومراده الذي أراد أن يقضيه وفق سننه التي سنها عَزَّ وجل في الكون، بالامتنان على المستضعفين بالنصر والتمكين. فيقول تبارك وتعالى ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ فيخبر الله تعالى عن حكمه وقضائه في المستضعفين من بني إسرائيل، بكشف ورفع الضر عنهم، مما أصابهم من فرعون وملئه، وذلك بإهلاك عدوهم، المتجبر والمتسلط عليهم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والْمَن هو: التفضل والإنعام والإحسان على الذين استضعفوا في الأرض. فكما كان فرعون مفسداً في الأرض باستعلائه وتكبره وتجبره، نريد أن نجعل هؤلاء بني إسرائيل أهل علو في الأرض وسيادة ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ فنجعلهم أئمة، وقدوات وقادة في الخير والصلاح، يقتدي بهم غيرهم، على نقيض ما كان يجدونه ويلقونه من فرعون. وذلك

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٩١/٣)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦/٤)

بتمكينهم من الْمُلْك، وهو قوله تعالى ﴿ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ يرثون ما كان يملكه فرعون وقومه، فيخلفونهم في الأرض. مما يبين قوة مراد الله تعالى، وأنه إذا أراد شيئاً أجراه كما أراد، ولا راد لحكمه وقضائه إذا حكم وقضى. كما يفيد هذا أن الله تعالى مدمر ومهلك أهل الباطل مهما طال بهم الزمان، وأن المؤمنين المستضعفين لهم من الله تعالى النصر والتمكين، وما عليهم إلا الصبر، والتزام دينهم.

ومن قضاء الله تعالى وحكمه قوله عَزَّ وجل ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴾ ومما امتن الله تعالى به على بني إسرائيل هو ترسيخ قدمهم في التمكين من الأرض ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ والتمكين يعني قوة الاقتدار بحيث لا يستطيع أن ينازعهم أحد. قال القرطبي والمفسرون رحمهم الله تعالى: أي: نجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها، حتى يستولوا عليها، يعني: أرض الشام ومصر[1] ليتبين أن الملك كله الله تعالى، ينزعه ممن يشاء، ويؤتيه من يشاء بحكمته وقدرته. وإذا أعطى مَكَّن من يُعطِيه، وأقدره على ما مَلَّكَه من مُلْك. وأنه يجب على من تملك أن يحسن حتى لا ينزع الله تعالى منه ما أعطاه. فالمالك الحق هو الله تبارك وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى بمراده من فرعون الذي تكبر وتجبر حتى على موسى رسول الله وكليمه عَزَّ وجل.

فقال تعالى ﴿ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴾ أي: ويريد الله تعالى بهذا القضاء، ونزع الملك من فرعون وهامان وجنودهما يريد به أن يريهما الأمر الذي كانوا يحذرون منه، ويخافون ويَتَوَقَّون حصوله، وهو زوال الملك، حتى أنهم يقتلون أبناء بني إسرائيل خوفاً من أن يكون منهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَنُرِيَ ﴾ أي: نجعل المذكورين الثلاثة: فرعون وهامان وجنودهما، يرون هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل، يتربى في بيوتهم، ويعيش بينهم، ويمنعهم الله تعالى من قتلهم له، بل رباه فرعون في بيته. فأراهم الله تعالى ما كانوا يحذرون ويخافون من وقعه. ليعلم كل أحد أن مراد الله تعالى إذا أراد شيئاً وقع كما أراد، مهما كان التحصن وقوة درجته، فليس هناك وقاية ولا حصانة من مراد الله تعالى وقضائه. مما يفيد أهمية الإيمان والاستسلام لله تعالى، والتوكل عليه، والاستعانة به، وليس بالحذر والقوة، فإنما هي أسباب، ولكنها لا تغني عن مشيئة الله تعالى ومراده. مما يُوجب على المسلم أن يعلق قلبه بالله تعالى، وليس بالأسباب، فإنما الأسباب وسيلة لا تجدي إلا بتوفيق الله تعالى، فإذا لم يكن من الله تعالى عوناً وتأييداً ونصراً، كان أول ما يجني على العبد تدبيره. وأن الحذر لا يغني الإنسان ما لم يكن من الله تعالى تسديداً ومعية. فإن قصص القرآن مليء بالدروس والعبر والمواعظ التي تهدي من أراد الهدى، وسعى له سعيه.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/١٦٥)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

بعد أن عَرَض السياقُ الكريم من الله تعالى ملخصاً لقصة موسى عليه السلام وفرعون، مما استثار عند الْمُخَاطَبين الكثير من التشوق والتشوف إلى مجريات قصة موسى عليه السلام مع فرعون، فينتقل البيان بعد ذلك التشويق إلى بيان نشأت موسى عليه السلام، وما فيها وما بعدها من أحداث مليئة بالعبر والدروس والمواعظ. فيقول الله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فمن عناية ولطف الله تعالى بأم موسى وبابنها موسى عليه السلام، وتدبير اللطيف الكريم أن أوحى سبحانه وتعالى إليها بما تضمنته الآية الكريمة ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ وحالات الوحي متعددة. فقد يكون إلهاماً لها بما يقذفه الله تعالى في قلبها، وقد يكون رؤيا منام، أيقنت بها أنها من عند الله تعالى، فهو وحي من غير تخصيصه بهيئة معينة، وهو الأولى لتنصيص الآية الكريمة على ذلك. قال ابن جرير: قال سعيد عن قتادة رحمهم الله تعالى: وحياً جاءها من الله تعالى، فقذف في قلبها، وليس بوحي نبوة[١] مما يفيد أن الله تعالى إذا أراد شيئاً ألهم العبد ذلك الشيء، من الحق والصواب، وزَيَّنَهُ في قلبه، وربط عليه، وسهله، وحببه إليه. مما يُعَلِّم المؤمنَ أن يكون كثير الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى في أموره وشؤونه، فإذا تولى الله تعالى شأن عبده وأموره دَبَّرَهَا بأحسن تدبير، وعلى أكمل وجه، وأحسن صفة، وأكملها وأضمنها.

وقد تضمن الوحي لأم موسى سُبُل المعالجة لخوفها، وسُبُل الحفظ لها بما لا يخطر على بال بشر، وبطريقة يظهر فيها الإعجاز من كل وجه، ويظهر فيها قوة تدبير الله تعالى، فالخطوة الأولى هي: الاستمرار في الرضاعة ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ بأن تتولى إرضاعه ولا تخاف من شيء. ثم عالج تبارك وتعالى ما يكون من الطبيعة البشرية التي سَنَّها في عباده من الخوف والوجل ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ فإذا وقع الخوف في قلبك عليه، وبلغ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/١٥٥-١٥٦)

منك الخوف أن يعلم به أحد من جهة وطرف فرعون ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي: ضعي موسى في تابوت، كما ورد في سورة طه ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ ثم ترمي به في اليم، وهو نهر النيل، وهذا بلا شك مصدر خوف آخر، ولكن يعالجه الله تعالى بأن نهاها عن الخوف ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ لا توجلي، ولا تخافي عليه من رميه في البحر، لأن الحافظ له هو الله تعالى، وهذا بلا شك يزيل الخوف، ويزيد من الطمأنينة.

ولما أن هذا يفقدها ابنها الرضيع موسى، فيلحقها الحزن عليه من فراقه، فيقول الله تبارك وتعالى لها ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ لا تتفكري في خلوة البيت من موسى، فيسبب لك الحزن ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ سنعيد ابنك موسى إليك كما كان، وأنت في طمأنينة من أمرك وأمره، ومن غير خوف عليه. بما يفيد سنتولى تدبير أمره. وقد ورد بيان رده إلى أمه بضمير المتكلم ﴿إِنَّا﴾ ومن فوائده: أنه أظهر العناية الخاصة برده، بما يفيد التأكيد الجازم ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ كما يفيد أن الله تعالى قد قضى بهذا الأمر، وقضاؤه حق كائن كما قضى عَزَّ وجل ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ إنا عائدوه إليك. وقد نسب عَزَّ وجل الرد والإعادة إليه تبارك وتعالى، وبضمير التفخيم والتبجيل والعظمة ﴿إِنَّا﴾ وكذلك التأكيد بزعامة فعل الرد ﴿رَآدُّوهُ﴾ أي: أن الذي يتولى رده هو الله تبارك وتعالى. بما يفيد القضاء برده. وتعيين المردود إليها بأنه ابنها موسى، بقوله تبارك وتعالى ﴿إِلَيْكِ﴾ وهي أمه، وتوجيه الخطاب لها من الله تعالى ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ ليفيد تأكيد الفعل بالتحقق، وتعظيم الأمر، وبيان القهر لكل من يعاند ويكابر عل منع رده، وأنهم مغلوبون على أمرهم، فرداً أو جماعة.

ثم زادها الله تبارك وتعالى ببشارة عظيمة، بما يربط على قلبها ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فسنجعله رسولاً من ربه عَزَّ وجل، بما يفيد أنه سيعيش، وسيكبر، ويبلغ مبلغ الرجال، وسيكون من المرسلين. فهذه عناية عظيمة من الله تعالى بأم موسى، وبابنها عليه السلام، وفي ذلك جلال في قوة التدبير الذي يبين أن الله تعالى إذا تولى أمراً من أمور عباده، دبره بأحسن تدبير، بما يبعث في نفس المؤمن أن يسأل الله تعالى أن يتولى تدبير أمره، وأن يقدم ما يدبره الله تعالى على تدبيره، وأن يرضى به مهما كانت مقاييسه وهيئته، فهو الخير بعينه، والخبير بعباده. ويفيد كذلك أن مكر المجرم ضعيف وهزيل عند الله تعالى، وأن مصيره الانهزام المتحقق أمام الحق.

ثم يطوي سبحانه وتعالى مكوثه وحاله في البحر، لينتقل الإخبار إلى وصول التابوت في أيدي آل فرعون، بما يفيد سرعة وصوله إلى طرفهم، وأخذهم للتابوت ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ

﴿عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ فالتقط آل فرعون التابوت ومن فيه ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ فقيضهم الله تعالى إلى التقاطه بحكمته وتدبيره لهم. والالتقاط هو أخذ الشيء من غير طلب، ومنه: اللقطة، التي هي تحصيلها من غير عناء ولا بحث عنها، لإفادة المفاجأة بالغنيمة. بما يدل على أنهم اعتبروه غنيمة، وهو ما حصل من زوجة فرعون في مطالبة فرعون أن يبقيه عسى أن ينفعهم، كما سيأتي قادماً بإذن الله تعالى، وهو قوله عزَّ وجل عن امرأة فرعون ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ وكما ورد أيضاً في سورة طه ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ وألقيت عليك محبة عظيمة كريمة كائنة مني لك مباشرة. بما يعني ويفيد أن يصبح موسى عليه السلام محبوباً من غيره، فتكون آية إعجاز. فهو يعيش بين عطف ومحبة امرأة فرعون له، وحفظها وعنايتها لموسى عليه السلام. وبين بطش وجبروت فرعون ولكنه أصبح محبوباً عنده. وجاء في التفسير: أن في بيت فرعون مجرى من النيل، فرأى أثناء جلوسه وزوجته آسية، ذلك التابوت يطفو على الشاطئ، فأمر به، ولما فتحوه وجدوا صبياً، فلما رآه فرعون أحبه حباً شديداً.

ومن جهل الإنسان بحاضره وبمستقبله، وبما يكون من حاضره لمستقبله من الشر أو الخير أن آل فرعون التقطوه، وهم أتباعه وجنوده الذين عثروا عليه، ليكون لهم موسى عليه السلام مصدر عداوة وحزن في عاقبة الأمر ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ لأن الله تعالى عالم بما سيكون من فرعون تجاه موسى عليه السلام عندما يكون رسولاً إليه، وبما أُرسِل به إليه، وأنه سيكذب موسى عليه السلام، ويجحد رسالته، وآياته وحججه. فتحصل العداوة، ويحصل لهم الحزن المناقض للسرور الذي كانوا يتوقعونه من التقاطه وتربيته وتنشئته بينهم، وذلك لما سيكون منه عليهم. فأخبر الله تعالى بما هو كائن قبل أن يكون لعلمه سبحانه وتعالى بما سيكون قبل أن يكون من الأمر في هذا الشأن، وفي كل شأن. ويظهر هنا حلم الله تعالى، وعدم معاجلته لفرعون بالعقوبة، فَيولد موسى، ويتربى سنين عديدة في بيت فرعون، وتمتد السنوات ليصبح موسى عليه السلام رسولاً، دون أن يعاجله الله تعالى بالعقوبة على تجبره حتى يُقيم عليه الحجة، فيأتيه موسى عليه السلام بالآيات والحجج، فيأبى أن يتواضع لآيات وحجج الله تعالى. ويزداد تجبراً بملاحقة موسى وبني إسرائيل حتى أغرقه الله تعالى في البحر.

ثم يخبر الله تعالى بحال فرعون، ووزيره هامان، وجنودهما من الخطأ الذي نهجوه ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ فإن فرعون، ووزيره هامان، وجنودهما ﴿كَانُواْ

خَٰطِـِٔينَ ﴾ أي: كانوا آثمين. فقد أخطأوا في حق ربهم تبارك وتعالى، ولذلك كان موسى عليه السلام لهم عدواً وحزنا. فالجزاء من جنس العمل. فقد كانوا مجرمين، فجعل الله تعالى ذلك عقاباً لهم. والخطيئة بمعنى الإثم.

ثم يخبر الله تعالى بما دار في بيت فرعون عن رعاية موسى عليه السلام، بما يتبين قدرة الله تعالى في تصريف الأمور ومجرياتها بما يحقق نصرته وقضاؤه للأمر ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فرحت به امرأت فرعون وأرادت أن تستأثر به لها ولزوجها، معللة لاقتراحها بتحصيل النفع من هذا الرضيع ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾ أي: مصدر سعادة وفرح وسرور لي ولك. وفي هذا اطماع لزوجها فرعون بالمشاركة في تحصيل السرور من هذا الرضيع، ومن عاقبة إبقائه حياً، مع العناية والاستئثار به، وبهذا نفت حسب تقديرها أن يكون مِن هذا الرضيع ما يُضاد ذلك. فطلبت استثناؤه من القتل، فخاطبت فرعون وجنوده بأن ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ ﴾ بما يعطي ثبوت ودلالة أن الأصل هو القتل في حكم فرعون لكل مولود، فطلبت الاستثناء.

فإن من تدبير الله تعالى أن عطف الله قلبها عليه، محبة وحُنواً. فترى فيه مخايل البركة والنفع. وبالفعل كان منه لها خلاف ما كان مع فرعون. فبسبب موسى عليه السلام دخلت في دين الله تعالى، وتبرأت من فرعون وعمله، كما ورد ذلك في سورة التحريم ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ ﴾ بل أصبحت مضرباً للمثل في التأثر بالحق وتقديمه، وعدم التأثر بالباطل وأعوانه. فكما سعت في إنجاء موسى من القتل بفضل الله تعالى وقدرته، نجاها الله تعالى من الكفر وعذابه، بل جعل المدح والثناء لها في كتابه العزيز، القرآن الكريم.

ثم عللت الإبقاء عليه حياً بتحصيل أحد أمرين: الأول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ فطلبته بأسلوب الإشفاق، عسى أن نصيب منه خيراً في قادم الأيام من حياتنا، فنحصل به على النفع. ولم تحدد النفع، ليكون عاماً، وأرجى عند فرعون لقبول طلبها، ولأن الأصل في تربيته هو تحصيل التعدد والتنوع من المنافع. وأما الأمر الثاني، أو الخيار الثاني: وهو الدافع إلى استثنائه من القتل هو ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾ اتخاذ هذا الرضيع ولداً. مما يدل على أنه ليس عندهما ولد، إما على الاطلاق، أو أن عندهما إناث فقط. وقد أوردت التعليل بفعل

الإشفاق والاطماع ﴿عَسَىٰٓ﴾ الذي يدفع فرعون إلى إبقائه. مما يدل على قوة شفقتها عليه بما أودعه الله تعالى في قلبها من محبته وإرادة بقائه حياً؛ حتى تكون هي سبب وسند في حفظه والعناية به. مما يُعَلِّم المؤمن أن الله تعالى قد يجعل له من يقف معه ويعضده وهو لا يعلم، بما يودعه الله تعالى في قلب وخاطر من يخصه بفعل السبب. وهذا يعزز التوكل على الله تعالى، والاستكانة إليه، والاعتماد على قوته وتدبيره.

ثم يخبر الله تعالى بأنه يدبر أمراً لا يشعرون بأنه في قادم الأيام سيكون هذا الغلام عدواً لهم، ومصدر حزن ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فهم لا يشعرون بما سيكون الأمر عليه في مستقبل شأنهم من موسى عليه الصلاة والسلام. ليتبين جهل الإنسان بما يترتب على تدبيره الحاضر في شأن ما يستقبله في حياته. مما يعلم المؤمن الرضى والطمأنينة مما يفوته، أو يحصله، وأن يسأل الله تعالى البركة فيما عنده، وفيما يأتيه، وما يكون في قادم أمره وشأنه. وألا ينزعج مما يفوته مهما تعلق قلبه به، فإن الله تعالى يعلم من شأن العبد ما لا يعلمه العبد من نفسه. ليتقرر في قلبه ونفسه أن تقدير الله تعالى هو الأفضل، وأن يُعلق قلبه بالله تعالى، ويسأله ويتوجه إليه، ويتوكل عليه، ويفوض أمره إلى ربه عَزَّ وجل. وليتقرر عند المؤمن قوة تدبير الله تعالى، وقوة اقتصاصه من المجرم، وأنه يعالج الأمور ويقضي فيها بحلمه. فلا يعني إمهاله عَزَّ وجل للفاسدين والمجرمين هو خير لهم، بل سَيُطَوِقُهُم بما يستحقون من النكال المهين.

ثم يخبر الله تعالى عن حالة أم موسى بعد أن أودعت موسى في البحر ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأصبح فؤاد أم موسى خالياً من كل شيء إلا من شأن ابنها موسى عليه السلام، وتلهفها عليه وعلى معرفة شأنه وما هو عليه، فانشغل ذهنها بالتفكير المتواصل في شأن ابنها. وأفادت كلمة ﴿وَأَصْبَحَ﴾ التحول من الحال الطبيعي الذي كانت عليه أم موسى، إلى حال آخر، وهو فراغ قلبها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي: فارغاً قلبها من كل انشغال عما يهمها ويشغلها إلا برضيعها موسى، وأما بغيره مما يهمها ويشغلها فقد أصبح القلب خالياً منه تماماً، فقد حلت التخلية من كل ذلك، واقتصار وانحصر انشغال فؤادها فقط على ابنها موسى عليه السلام.

ومن دقائق الوصف، أن الله تبارك وتعالى وصف قلب أم موسى من فرط حزنها على وليدها بأنه قد أفرغ فؤادها من كل شيء مما يدور فيه من الفكر والاهتمام ﴿فَٰرِغًا﴾ إلا من شأن موسى، بما يفيد الخواء من كل شاغل فكري إلا من ابنها. فقد احتوى شأن مولودها موسى كل قلبها وفكرها. لفرط خوفها عليه، حتى وصل بها الأمر إلى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ فمن شدة وجدها على ابنها أن أوشكت أن تخبر بأن الذي التقطه آل فرعون من البحر هو ابنها، وذلك لشدة هلعها عليه. لتكشف بذلك عما أصابها من الوله على

ابنها. مما يدل على قوة حنان الأم على أولادها، فلا يشغل قلبها عند غياب أحدهم أو تأخره عن موعده إلا هو، فينصرف القلب عن كل شاغل، ويشتغل التفكير بشأنه. ولكن لطف الله تعالى بالعبد يعينه ويسنده ويوفقه.

ثم يخبر الله تعالى بعصمته لها مما كادت أن تُظهره، بتأهبها للتصريح بشأن ابنها ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ لولا أن شددنا على قلبها بالعصمة والتثبيت، والتقوية على الصبر والتريث. وورد الوصف بلفظة الرَّبط ﴿رَّبَطْنَا﴾ الذي يفيد شَدُّهُ وتقويته بالطمأنينة، حتى قوي قلبها بتحمل الأمر. ومن عنايته عَزَّ وجل وكرمه أن نسب الفعل له مباشرة ﴿رَّبَطْنَا﴾ لإظهار العناية بها وبحالها. مما يفيد ويبين ضعف الإنسان بحاله، وقوة الإنسان بعون ربه عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان أن وردت دلالة كلمة الربط ﴿رَّبَطْنَا﴾ على القلب ذاته ﴿رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ولم تكن على الفؤاد الذي وقع فيه الفراغ، كما قال تعالى ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ فأعطى ذلك التغاير أدق الوصف للعلاج، بأنه كان على القلب كله، بينما ورد الوصف لحال الفراغ بأنه متعلق بفؤادها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي بخلوه من جميع مشاعر الاهتمام وتفرغه لابنها موسى فقط. وهنا لم يقع الربط على الفؤاد الذي كان فارغاً، بل ورد الربط على القلب لأنه أعم وأشمل من الفؤاد، وهذا من كرم الله تعالى عليها. وليعطي دلالة بأن الفؤاد هو المُعبِّر عن دقائق الإحساس، وأنه محل المشاعر، فهو أخص من القلب، والقلب أعم من الفؤاد، فَجُعل الربط على القلب الذي هو أعم وأشمل، وليدل ذلك على سعة وتعدد مهام القلب. وأما الفؤاد فهو المعبر عن دقة وعمق المشاعر، والقلب يستوفي جميع شؤونه، وما هو متعلق به من الإدراك والتفكير والتأمل والتحليل وغير ذلك من العمليات العقلية، مما هو من شأن القلب عموماً.

فحين كانت في حرارة التلهف والخوف والقلق والفزع، وردت التسمية له بالفؤاد ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ وعندما ورد ذكره في هيئة العلاج، وزوال ما كانت تعانيه من حرارة الفقد والخوف، وقوة الترقب لشأن رضيعها موسى وردت التسمية له بالقلب ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فحصل الربط الذي يفيد شَدُّهُ بالطمأنينة حتى قوي قلبها بالصبر. فأفاد ذلك أن هناك دقة عميقة في استخدام القلب، واستخدام الفؤاد. فعندما تكون هناك شدة أو معاناة، أو حالة غير مستقرة يُستخدم الفؤاد، لأنه مكان المشاعر في القلب، وعندما تكون هناك حالة من الطمأنينة الغالبة عليه يُستخدم القلب. مما يفيد أن الفؤاد: يعبر عن دقة وعمق المشاعر، والقلب: يعبر عن عموم حالات القلب، وبالتالي الفؤاد أخص من القلب، والقلب أعم من

الفؤاد. وبناء عليه تكون دلالة القلب أعم، لتحمل جميع عمليات القلب، كالعمليات العقلية، من التذكر والنسيان والحفظ والتحليل وغيرها. وهذا من دقائق دلالات ألفاظ القرآن الكريم وكلماته وسياقه.

وليتبين من ذلك مدى فقر الإنسان لتوفيق الله تعالى وعونه في كل شأن وأمر، وأن على المؤمن أن يكون كثير السؤال لربه تبارك وتعالى، وكثير الالتجاء إليه، فلا حول ولا قوة لأحد إلا بلطف الله تعالى وعونه. فتظهر هنا أهمية لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بالغاية من الربط على قلبها ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لتكون من المصدقين الموقنين بتحقق ما وعدها الله تعالى به، وهو قوله عَزَّ وجل لها ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مما يفيد أهمية الصبر، والاستقواء على النفس بما يحقق الخير، ويدفع الشر. والالتجاء إلى الله تعالى بأن يعين على تحقيق المراد، ودفع ما لا يراد.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم إلى مجريات حالة أم موسى، ولطف الله تعالى بها وبرضيعها، واستيفاء الوعد لها من الله العزيز الحكيم ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فيقول الله تعالى حكاية عن أم موسى بعد أن وضعته في التابوت، ثم ألقته في البحر ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ ﴾ أي: وقالت أم موسى لابنتها أخت موسى عليه السلام ﴿قُصِّيهِ﴾ تتبعي أثر موسى حتى تعلمي شأنه وخبره، بعد أن ربط الله تعالى على قلبها، واطمأنت أن الله تعالى رادُّه إليها. ومن بلاغة البيان أن ورد الأمر لأخته بكلمة واحدة، وهي: ﴿قُصِّيهِ﴾ التي جمعت المطلوب كله. لأن الْقَصُّ تتبع الأثر بدقة من خلال النظر وإعمال جميع الحواس التي يتحقق بها التتبع الدقيق، الذي تحصل به تمام المعرفة.

ثم انتقل البيان مباشرة لفعل الأخت وما كان منها، ليفيد سرعة الامتثال، والشوق لمعرفة شأن أخيها ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ألقت إلى أخيها موسى وإليهم بصرها، وتحقق منها

الإبصار بقوة المشاهدة وتحققها. وقد سبق فعل الإبصار حرف الفاء ﴿ فَبَصُرَتْ ﴾ وهو حرف عطف على ما قبله، ليدل على سرعة الامتثال لِمَا طُلِب منها، فتتبعت الأخت أثر أخيها ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ ﴾ أي: تحققت المشاهدة منها، بأن ألقت إلى أخيها موسى وإليهم بصرها، وتحقق منها الإبصار بقوة المشاهدة وتأكدها. فجملة ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ ﴾ تفيد تحقق الرؤية له ببصرها، ورؤيته بعينها، وقد ورد الإبصار منها له ولهم بصيغة الماضي ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ ﴾ ليفيد حصول تمام التحقق من شأن أخيها موسى عليه السلام.

وقد أورد الله تعالى بيان هيئة أخته منه أثناء تحقق رؤيتها له أنه كان باحتراز من أن يشعروا بها، فكان ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ أي: عن جانب، وناحية، وبُعْد يجمع بين الرؤية والمشاهدة والتحقق وبين المجانبة عنهم. فكانت رؤيتها له عن مجانبة، بحيث تراه، وهم لا يشعرون أنها تراهم وترقبهم، وتنظر إليه، وكأنه لا يعنيها، فيكون هيئة النظر منها اختلاساً. مما يدل على ذكائها وفطنتها، حتى أن أمها اقتصرت في أمرها على كلمة ﴿ قُصِّيهِ ﴾ ليدل على معرفة الأم بذكاء وفطنة ابنتها. ثم أخبر سبحانه وتعالى بما يؤكد نجاحها في قَصِّهَا لأثر أخيها دون أن يشعروا بذلك، فقال تعالى ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فنفى سبحانه وتعالى أن يكون فرعون ومن معه شعروا بأنها ترقبهم، وأنها تتبع أثره، وأنها تعرفه. لأنهم لو شعروا بذلك لحصل الشك فيها، وعرفوا أن الأمر يهمها. وجميع ذلك هو بتدبير الله تعالى وتوفيقه، كما يؤكد هذا أهمية السعي، وأهمية الاهتمام، وأنه لا ينافي التوكل، طالما كان الاعتماد والثقة بالله تعالى مع الأخذ بالأسباب.

ومن بديع الإعجاز في السياق أن الإخبار من الله تعالى اشتمل على ثلاثة أجزاء، أو ثلاثة أخبار دون أن يشعر القارئ أو السامع للآية بالانتقال فيها من وصف إلى وصف، ومن حالة إلى حالة، فاشتملت الآية الكريمة أولاً: على ما كان من أم موسى ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ والخبر الثاني: ما كان من أخت موسى عليه السلام ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ والخبر الثالث: بيان حال فرعون ومن معه بشأنها وهي ترقبهم وتبصرهم ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فكان سياقاً بديعاً في سلاسته وتتابعه الذي صَوَّر الأحداث الثلاثة بدقة بلاغية غاية في النظم والإعجاز.

ثم يخبر الله تعالى بقوة تدبيره وحكمه وحكمته في شأن موسى عليه السلام وأمه ورضاعته ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ فمن حكمة الله تعالى أن جعل الرضيع موسى لا يقبل ثدي أي مُرضعة أبداً قبل أن يعود لأمه فيرضع منها. فقطع

الله تعالى الأمر بالتحريم ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ بما يفيد القضاء بذلك، فكلمة ﴿ وَحَرَّمْنَا ﴾ تفيد الحكم المانع على الممنوع وهو موسى ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ﴾ ما يفيد وصول المنع الجازم المتحقق مهما بلغ به الجوع، إلى درجة التحريم الذي يجب فيه التنفيذ، وهو لإفادة المنع القطعي، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وهذا تحريم منع، لا تحريم شرع. قال المفسرون: بقي ثمانية أيام ولياليهن، كلما أُتِيَ بمرضع لم يقبل ثديها(١) فاختيار دلالة التحريم لإفادة الجزم بإنفاذ ما قطع الله تعالى به من منعه الرضاعة من المرضعات. ليتبين أن الله تعالى إذا قضى وحكم بأمر أنفذه بالوجه الذي يريده ويرضاه عَزَّ وجل. وليفيد عظمة تدبير الله تعالى وحكمته فيما يقضي به. وكيف يعالج الأمور ويدبرها. مما يُوجب على المؤمن التمعن في أحكام الله تعالى وتقديره، والتماس الحكمة منها، بما يجعله يعيش في طمأنينة وراحة بال فيما يواجه من القضاء والقدر.

فقضى سبحانه وتعالى أن لا ترضعه مرضعة قبل عودته إلى أمه ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ وتحريم المراضع، أي: منعه من أن تُرضعه المرضعات، ومنعه من أن يقبل ثدي أي امرأة كانت ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل أن نرده إلى أمه، فَكَرَّه سبحانه وتعالى لهذا الرضيع قبول رضاعة المرضعات. ليعلم الإنسان عظيم قدرة الله تعالى، ودقتها، ووقوعها كما أراد، وكيف دفع أم موسى أن تطلب من ابنتها أن تقصه، وكيف بصرته بينهم، وهم لا يشعرون. فالأمر والتدبير لله تعالى.

وبعد أن أعياهم أن يجدوا مرضعة يقبل أن يرضع منها موسى، تأتي إليهم أخته، فقالت بما حكاه الله تعالى عنها ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ فمجيء أخته لم يكن ابتداء، إذ لو كان ابتداء لربما كان محل شكك، ولكن جعلها الله تعالى تأتي إليهم بعد تشوفهم وطمعهم في مُرضعة يقبل موسى الرضاع منها ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ ﴾ فقالت لهم هل أرشدكم على أهل بيت، ولم تقل: أرشدكم لأمي تُرضعه. فاعتبرت نفسها عند خطابها لهم أنها بمثابة ومنزلة الدليل والمعين لهم على قضاء حاجتهم، وهذا أَدعَى وأسرع في القبول منهم لها، وعلى مشورتهم. ثم بينت المحفزات لقبول مشورتها، فأول المحفزات: أنها أتت في طرح رأيها بأسلوب التحضيض، من خلال أسلوب الاستفهام الاختياري، إن أرادوا ما أشارت به إليهم ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ سؤال تحضيض، ترغبهم وتحضهم باستفهامها منهم. فإن رغبتم فيما أشور به عليكم؟ وهذا يُبعد الشك عنها، وتزداد الثقة بها وبالرأي والمشورة منها، ويستبعدون به أن لها علاقة بموسى عليه السلام. فلم تحرضهم بأسلوب الطلب، بل بأسلوب التحضيض والترغيب.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٩٠)

وثاني المحفزات: أنهم يتكفلون ويقومون بشؤونه ﴿يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾ يقومون بكفالته، أي: يضمنون له ما يحتاجه ليعيش عيشة كريمة سوية، فالكفالة تجمع جميع ما يخص الرعاية، ومنها ضمان الحفظ والإرضاع والعناية بكل شؤونه. وثالث المحفزات: الإخلاص فيما يتكفلون لكم به ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ فهم لهذا الرضيع ناصحون بالإخلاص لكم فيه، وعدم الغش، أو ما قد يقترن بالكفالة من الفساد، أي: الإخلاص في مضمون كفالته لكم على أحسن وأكمل وجه، فهو تزكية للكفالة بالإخلاص فيها. وفي هذا بيان منها بما يفيد أنه تقديراً منهم لفرعون، ومكانته سيكونون له ناصحون. بما يجعل فرعون وآل فرعون يطمعون في أهل هذا البيت. وهذا يدل على حذقها وفطنتها وذكائها وتوفيق الله تعالى لها في القول والعمل، ليحقق الله تعالى ما وعد به أم موسى، ويحقق ما قضى به فيما هو قادم من أمر رسوله موسى، وفرعون وآل فرعون.

قال القرطبي رحمه الله تعالى عن شأن إرضاع موسى عليه السلام: أن امرأته طلبت له المراضع، وكان لا يأخذ من أحد، حتى أقبلت أخته، فأخذته، ووضعته في حجرها، وناولته ثديها، فمصه وفرح به. فقالوا لها: تُقيمين عندنا؟ فقالت: إنه لا لبن لي. ولكن أدلكم على من يكفله، وهم له ناصحون. قالوا: ومن هي؟ قالت: أمي. فقالوا: لها لبن؟ قالت: لبن أخي هارون. وكان هارون أكبر من موسى بسنة، وقيل بثلاث[١] قال ابن جرير رحمه الله تعالى: فأخذوها، وقالوا: بل قد عرفت هذا الغلام، فَدُلينَا على أهله. فقالت: ما أعرفه، ولكني إنما قلت: هم للملك ناصحون[٢] أي: أن نصحهم له ليس لقرابة، بل عن احترام وتقدير للملك فرعون. ليتبين من ذلك حكمة الله تعالى، وجميل تدبيره، وهداية أخته لتقول القول المناسب في الوقت المناسب، وللمقام والمراد الذي يُبعدها عن الشك والريبة.

ثم يخبر الله تعالى بعودة موسى عليه السلام إلى أمه، وقد طوى الإخبار بتفاصيل ما يتعلق بعملية القبول، وما يلحق ذلك من كيفية لقاء أم موسى، وما اتفقوا عليه معها، لأن ليس فيه شيء من أغراض القصة وأهدافها، وليكون ذلك أشد في المتابعة للمهم، وعدم تضييعه بتفاصيل ليست من أغراض وأهداف القصة. وليتبين دقة السياق في تتابع محاور القصة، من غير أن يُحدِث عند القارئ شيئاً من تشتيت الذهن، وإشغاله بما لا تتحقق به أهداف وأغراض القصة. فقال تعالى ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فقضى الله تعالى بما حكم به، لتدور الأمور والأحداث من المعنيين به وفق ما أراده عَزَّ وجل أن يحصل، فهو سبحانه وتعالى الذي رَدَّه لأمه

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٢/١١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦١/١٦)

﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ فأعدناه إلى أمه، ونسب جَلَّ جلاله الرد إليه عَزَّ وجل ﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ فليست إرادة غيره، وليست الأسباب هي التي أعادت موسى لأمه، بل صَرَّف الله تعالى الأسباب لتعود بموسى إلى أمه. فتأمل أيها الْمُخَاطَب تدبير ربك عَزَّ وجل، الذي أخبرك بدقائق فعله جَلَّ في علاه، ليدرك المؤمن أن الله تعالى إذا أراد شيئاً طَوَّع الأسباب لحصوله، وأرغم الموانع على الطاعة والامتثال والانكسار. فثق بالله تعالى، وتوكل عليه، واعتمد عليه، وتوسل إليه، وباشر طاعته وامتثل لأمره سبحانه وتعالى.

ثم يخبر عَزَّ وجل بما امتن به على أم موسى من تحصيلها نِعَمِ أسباب إعادة ابنها إليها، ففي تلك الأسباب عناية بها، وإكراماً جليلاً من رب العالمين لها. بأن يتحقق لها بإعادة موسى عليه السلام ثلاثة أمور عظيمة، الأول: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ فأعاده الله تبارك وتعالى لأمه ليحصل لها به قرار العين، وقرار العين يشمل هدوء بصرها، الْمُعَبّر في حركته عن الترقب والتطلع، بالنظر يميناً وشمالاً، عسى أن ترى ابنها فيستقر نظرها المتحفز بالتطلع والترقب، والمعبر عن عدم استقرار الذهن بتنقله، ليزول ذلك الترقب، ويتغير النظر عن تلك الحال إلى الاستقرار والهدوء، فيصبح النظر في حالة الاطمئنان، بتمركزه على طفلها في انشراح صدر، وخُلوه من التلفت الْمُمْتَلِئ بالترقب للمحبوب، وقد عَبَّر استقرار العين ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ عن استقرار فؤادها، واطمئنان قلبها، وانتفاء الحزن، وهو الأمر الثاني: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ فمكان الحزن هو الفؤاد. لينقطع به ألم الحزن القلبي، المعبر عن أثر الماضي وما يُستقبل من تفويت المحبوب فيحدث الحزن. فقد عَبَّر السياق عن استقرار العين ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وعبَّر كذلك عن استقرار القلب بانتفاء الحزن ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ والجملتان متعلقتان بالماضي والحاضر والمستقبل، فجملة ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ متعلقة بالحاضر والمستقبل الذي تأكد به قرار عينها، وبصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي يفيد الحاضر والمستقبل. وأما ما يخص ما لصق بها من حزن عن غياب ابنها عنها، فعَبَّر القرآن الكريم عنه بنفي الحزن حالاً ومستقبلاً، وزوال أثر ما مضى ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ فيزول أثر حُزن الماضي، مع الإفادة بنفي حدوثه مستقبلاً، لأنه فعل مضارع مستمر. وبالتالي فلن يحصل في قابل أيامها ما يثير حزنها، أو يجلب لها الحزن والألم. وهذا دليل على عظيم قدرة الله عَزَّ وجل، وكذلك قوة الإعجاز البلاغي في القرآن العظيم. وما تضمنه من عظيم كرم الله تعالى عليها بهذا الامتنان العظيم، الذي يبين نعمة حاضرها ومستقبلها، وزوال ما يكدر نفسها وخاطرها.

والأمر الثالث: ليتحقق لها العلم اليقيني بأن وعد الله تعالى إذا وعد به فإنه كائن لا محالة. فيكون كما وعد به ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فليتحقق لها العلم العملي اليقيني بأن ما يعد الله تعالى به

متحقق، وأنه حق كما وعد. وبالتالي يتحقق لها العلم بأنه سيكون رسولاً من المرسلين الذين أرسلهم الله تعالى، وليتحقق لها الطمأنينة بأن الله تعالى سيحفظ ابنها، وأنه من أوليائه سبحانه وتعالى، المحاطين برعايته وفضله.

ثم يبين ويوضح تبارك وتعالى الذي أكثر الناس عليه من الجهل بذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإن أكثر الناس لا يعلمون حكمة الله تعالى في قضائه وتدبيره، ولذلك يحصل الجزع، ويحصل الخوف، وعدم اليقين، وعدم الصبر، وعدم التوكل، وعدم وجود التعليل والتفسير والتحليل الذي يجعل النفس في طمأنينة من قضاء الله تعالى وقَدَرَهُ الذي يُقَدِّرُه عَزَّ وجل، لأنهم يجهلون مغبته، وعاقبته، وحكمة الله تعالى فيما يدبره ويقضيه لعباده في كل شأن من شؤونهم. ومما يفيد أن المؤمن الذي يفسر كل أمر من تدبير الله تعالى بأن فيه الخير الذي لا يعلمه، فإنه بذلك الاعتقاد يطمئن قلبه، وتستريح نفسه، ليكتشف في قادم أيامه وأمره أن قضاء الله تعالى وتقديره السابق كان خيراً محضاً له، إما بمنع شر عنه، أو بتفويت ما هو أدنى، ليحصل به على الأعلى والأحسن والأفضل. أو أنه أعطاه ليرى منه كيف يُحسن، فعليه أن يُحسن فيه. أو يمنع عنه لعلمه سبحانه وتعالى أنه قد يُطغيه. فإن الله تعالى أعلم بعباده من أنفسهم بأنفسهم، فكم من قائل: لو أعطاني الله كذا وكذا من الخير، لعملت فيه كذا وكذا من الطاعة، فإذا حصل عليه أفسد نفسه، وربما أفسد من هم في كنفه وطَرَفِه ممن يعولهم ويرعاهم. ونسأل الله تعالى أن يُبصرنا ويوفقنا، ويجعلنا نبصر الحكمة في قضائه وقدره، ونرضا به تمام الرضا.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى شأن موسى عليه الصلاة والسلام عندما بلغ مرحلة الأشد من عمره ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلما استكمل موسى عليه السلام أمران: الأمر الأول: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وهي: المرحلة التي يبلغ فيها الرجل قوته الجسمية، وكمال عقله. قال الفيروزي أبادي رحمه الله تعالى: حتى يبلغ أشده أي: يضم أوله، أي قوته، وهما ما بين ثماني عشر إلى ثلاثين سنة[١] وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: واحدة الأشد شِدَّة، والشدة القوة والجلادة، والشديد الرجل القوي، وقال الزجاج رحمه الله تعالى: هو من نحو سبع عشر إلى أربعين، وقال مرة: هو ما بين الثلاثين والأربعين[٢] وقال السيوطي رحمه الله تعالى في سورة الأحقاف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أشده: هو كمال قوته وعقله ورأيه، أقله ثلاث وثلاثون سنة، أو ثلاثون. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تمامها،

(١) الفيروزي أبادي، القاموس المحيط (٣٠٥/١)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (٢٣٥/٣) ملخص

وهو أكثر الأشد[١] مما يفيد أن الإنسان عموماً: إنما يَكْمُلُ رشده وأشده في سنوات هذه المرحلة، وأن كمال الأشد هو الأربعين.

والأمر الثاني: ﴿ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ أي: تناهى واستكمل كمال قواه. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: تناهى شبابه، وتم خلقه واستحكم. وقد اختلف في مبلغ عدد سني الاستواء، فقال بعضهم يكون ذلك في أربعين. عن مجاهد: أربعين سنة[٢] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: واعتدل وتم استحكامه، وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه[٣]وهي تفيد الشمول، كقوله تعالى في سورة الفتح ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ فهو تكامل موسى عليه الصلاة والسلام من كل وجه. وبهذا قد استكمل موسى عليه السلام خصيصة كمال الأشد والرشد، وخصيصة الاستواء الذي تكاملت به شخصيته التكامل البشري الذي لا نقص فيه.

وعندما بلغ هذا المستوى، وهذه الدرجة البشرية من الأشد وكمال الاستواء أعطاه الله تعالى الحكم والعلم ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ فأعطى الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام بمنه وفضله حكماً وعلماً بعد أن استوفى الأشد والاستواء في بنيته وفي أمره وشأنه كله ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ فقد أعطاه الله تعالى منحتين عظيمتين، الأولى ﴿ حُكْمًا ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى: الفقه والعقل، وقال ابن السائب رحمه الله تعالى: النبوة، وقال الزجاج رحمه الله تعالى: أنه جُعِل حكيماً، وقال الثعلبي رحمه الله تعالى: أنه الإصابة في القول، وقال اللغويون: الحكم عند العرب ما يصرف عن الجهل والخطأ، ويمنع منهما. وأما المنحة الثانية ﴿ وَعِلْمًا ﴾ قيل: الفقه، وقيل علم الرؤيا[٤] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: الحكم: الحكمة على العموم. وقيل النبوة، وقيل الفقه في الدين، والعلم والفهم، قاله السدي، وقال مجاهد: الفقه، وقال ابن إسحاق: العلم بدينه ودين آبائه، وقيل كان هذا قبل النبوة[٥] وجميع تلك المعاني هي دلالات متظافرة وفي تعاضد لا خلاف بينها، إذ استجمعت ما سبق من الأقوال. أما الرسالة فقد كانت بعد خروجه من مدين، عندما آنس ناراً.

(١) السيوطي، تفسير الجلالين (٥٠٤)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/١٨١)
(٣) الزمخشري، الكشاف (٣/٣٩٤)
(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/١٥٤)
(٥) الشوكاني، فتح القدير (٤/١٦٣)

فاستوفت دلالة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ جميع ما أعطاه الله تعالى. مما يفيد أن لكل شيء إعداد وتهيئة بما يناسب ما أُعِدَّ له، وأن حِكمة الله تعالى اقتضت أن يُعِدَّ العبد بما يجعله مستوفياً ومستعداً لما هو موعود به من ربه. فيجتهد الإنسان ولا يعلم ماذا سيكون عليه أمره وشأنه في قادم عمره وحياته. مما يتطلب من الإنسان أن يُعِدَّ نفسه لما يريد أن يحصل عليه، أو يقوم به في حياته، بحسب نوع ذلك الأمر، من مهنة أو التضلع في علم من العلوم، أو تجارة، أو إنشاء وتكوين أسرة، أو غير ذلك، فإن سنة الله تعالى تقتضي الإعداد والاستعداد. وأن يسأل الله تعالى التوفيق.

ثم أوضح وبين العزيز الحكيم أن كل محسن في حياته سيناله العظيم من فضل الله تعالى ورحمته ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فكما أعطيتُ ومنحتُ موسى الحكم والعلم ومكنته بما وهبته وأعطيته، ونجيته وحفظته من المكاره، وذلك لطاعته إيايَّ، وخوفه من عقابي عندما قتل الرجل القبطي، فكذلك نجزي ونعطي ونثيب كل من أحسن في الطاعة والامتثال، وانتهى عن المعاصي. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: كما جزينا موسى على طاعته إيانا، وإحسانه بصبره على أمرنا، كذلك نجزي كل من أحسن من رسلنا وعبادنا، فصبر على أمرنا وأطاعنا، وانتهى عما نهيناه عنه[١] فأعطى النص الكريم معناً عاماً وهو الأصل، بأن الله تعالى يكافئ كل محسن بما يستحق من كرم الله تعالى وفيض عطائه، وأفاد معناً خاصاً لموسى عليه السلام. ففي قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تزكية لموسى عليه السلام بأنه كان من المحسنين، الذين اتصفوا بالإحسان. والمحسن هو: من يؤدي الواجبات، ويُحسن في أدائها، ويترك المحرمات، مع الاجتهاد في أنواع الإحسان والخير بالجاه والمال والكلمة والفعل والقول وغيرها مما يستطيع فعله.

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/١٨٢-١٨٣)

يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى شيء من حياة موسى عليه السلام قبل نبوته، التي تظهر فيها العبر والدروس ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق في دينه، عاب ما كان عليه قوم فرعون، وفشا ذلك منه فيهم، فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة لفرعون إلا خائفاً مستخفياً[١] فأصبح يدخل متخفياً للمدينة ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ ﴾ وهي: مدينة منف، من مصر[٢] وكانت هيئة دخوله لها متخفياً ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أي: في الوقت الذي يكون أهل المدينة غافلين عن طُرُقِهَا وشوارعها، كأن يكون وقت المساء، حيث وقت لزوم البيوت للراحة والنوم، أو وقت الظهيرة حين يستريح الناس في بيوتهم للقيلولة. مما يدل على شدة خوفه من بطشهم.

وتفاجأ موسى عليه السلام في إحدى مرات دخوله برجلين يقتتلان ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي: يتنازعان، ويتضاربان ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أحد هذين الرجلين ممن هو على دين موسى عليه السلام ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ ممن شايع موسى على دينه من بني إسرائيل. ومعنى شيعته: من أولياء موسى وأنصاره، ومن أهل ملته ومنهاجه، ومن مؤيديه ومناصريه. والرجل الآخر من فئة الأعداء ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ من أعدائه من القبط، الذين هم على ملة فرعون. فيدل السياق على أن الذي استغاث بموسى يعرفه، فهما متعارفان فيما بينهما، وأنه من بني إسرائيل. وأن الذي من عدوه كان من القبط، أي من قوم فرعون، وهذا دليل على أن أعداء موسى كثير، وهذا واحد منهم، أي من القبط. لأن حرف ﴿ مِّنْ ﴾ يفيد التبعيض، أنه واحد من بعض أعدائه، المبغضين لدين بني إسرائيل. وهذا يدل على كثرة أعداء موسى عليه السلام لدينه المخالف لملتهم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٢/١٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٣/١٨)

ثم حصلت الاستغاثة بموسى عليه السلام عند رؤيته له ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ﴾ أي: طلب نجدته للتخلص من عدوه ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ فطلب الذي من شيعته العون والمناصرة على الذي من أعدائه ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ فضربه موسى وكزاً بمجامع كفه ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ فأجهز عليه، بأن قتله، فقضى وفرغ من شأنه بقتله. وكل شيء فرغت منه فقد قضيته، وقضيت منه. وغالباً وكزة قبضة اليد لا تقتل، ولكن حصل ما لم يرده موسى عليه السلام، كما يدل ذلك على أن موسى عليه السلام كان قوي البدن جداً، فقد حباه الله تعالى صحة وعافية وقوة جسمية. وأنه كان رجلاً يحب نصرة الدين وأهله، ونصرة المظلوم، لأن بني إسرائيل في حكم فرعون مستعبدون مقهورون، فكانوا خدماً لقوم فرعون، فيكون الظلم واقع عليهم من غيرهم المتعالين. ومما يدل على أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يرد قتل الرجل أنه أنَّب نفسه على ما حصل من قتل الرجل الذي من عدوه ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ قال هذا الفعل من قتلي للقبطي هو من وسوسة وتزيين الشيطان ﴿ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ إن الشيطان عدو للإنسان، إذ يزيين له سوء عمله، بأن شَدَّدَ عليه قضبه فوكز عدوه وكزة قوية فقضت عليه، مما يدل على أنه لم يكن يريد أن يصل الأمر إلى القتل، بل النصرة بالإبعاد.

ثم وصف إضلال الشيطان بأنه ﴿ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ يضله ويغويه عن طريق الحق، ويدخله طريق الباطل بالتزيين، أو بتشديد الغضب والانفعال. بل أكد هذا بأن عداوته وإضلاله واضحة ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة والإضلال، وأكده كذلك بنون التوكيد التي سبقت البيان ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ الذي التحق باسم الإشارة المتعلقة بالشيطان. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: أنه فعل ناشئ عن وسوسة الشيطان، ولولاها لكان عمله جارياً على الأحوال المأذونة[1] مما يدل على شدة الندم، والمعرفة بأن الشيطان عدو مبين، وأن عداوته ظاهرة، فلا تحتاج إلى تقصي. مما يفيد ويدل على عدم رضاه عن قتله للرجل. ولكن لله تعالى حكمة فيما كان من موسى عليه السلام. وهذا الأسف والندم يفيد ويؤكد أن موسى عليه السلام لم يكن ينوي قتله، بل أراد إبعاده بأن يُوجعه، ويُخِيفه، فيدفعه عن الذي من شيعته. ولذلك حصل منه شِدة الأسف والندم، وخوفه من الله تعالى فيما كان وحصل منه، ولذلك اتجه لربه تبارك وتعالى طالباً منه المغفرة.

وعندما شعر موسى عليه السلام بالأسف والندم توجه إلى الله تعالى بطلب المغفرة والصفح عنه، فيما كان وحصل منه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٦٠/٨)

فبدأ الطلب بالاعتراف أولاً ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ لقد جنيت على نفسي، وحَمَّلْتُها الظلم بقتلي نفساً لم تأمرني بقتلها. والظاهر أن هذا القتل قبل نبوته عليه السلام. لأنه بعد ذلك ذهب إلى مدين، وتزوج، ثم غادرها، فرأى ناراً فذهب إليها، فكلمه ربه تبارك وتعالى. قال القرطبي رحمه الله تعالى: قيل: أن هذا كان قبل النبوة، وقال كعب: كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة، وكان قتله مع ذلك خطأ، فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل[١] فالندم هو على وقوع القتل وليس على مساندته للمستضعف الذي استغاث به، لأن موسى عليه السلام ليس من أهل الطيش، فإن الله تعالى قد أعطاه حكماً وعلماً. ومن جميل صنيعه اعترافه، وتحميل نفسه ما كان منه، ولم يبحث عن مبررات تدفع اللوم عن نفسه، ليستريح من هم فعل القتل. مما يُعَلِّم المؤمن الصدق مع النفس، وأنه يؤدي إلى الصدق مع الله عَزَّ وجل، وعدم البحث عن مبررات يدفع بها الإنسان عن نفسه الخطأ، ويبرر لنفسه سوء عمله. بل على المؤمن أن يكون صادقاً مع نفسه، حتى يستطيع معالجة وتربية وتهذيب نفسه.

ثم بعد اعترافه وتحميل نفسه المسؤولية، من غير تأول فاسد لفعله يسأل الله تعالى أن يغفر له ﴿ فَٱغْفِرْ لِي ﴾ فأمحو وأزل عني ذنبي ﴿ فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾ فقد غفر الله تعالى له ما كان منه. ثم يخبر سبحانه وتعالى عباده عن شمول مغفرته ورحمته لموسى ولغيره من عباده ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إن ربكم هو الغفور لذنوب عباده، وأنه رحيم بهم، بما يفيد الترغيب والحث لعباده بأن يستغفروا ربهم، ويتوبون إليه، فإن ربكم متصف بالرحمة من أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد أن أقلعوا عنها، وتابوا منها، وندموا على ما كان منهم. وإنها لنعمة عظيمة أن يغفر الله تعالى لمن تاب وأناب، وأنها رحمة جليلة عظيمة أن يرحم الله عَزَّ وجل عباده المؤمنين. فالحمد لله رب العالمين. اللهم اغفر لنا وارحمنا.

ثم يجزم عليه السلام بعد استغفاره على أن لا يعود إلى مناصرة المجرمين ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ فيتعهد لربه تبارك وتعالى قائلاً ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ فبما تفضلت علي من المغفرة والحكم والعلم وبعموم الإنعام ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ فلن أكون مناصراً لمن حاله الإجرام. قال الشوكاني رحمه الله تعال: ويكون في ذلك استعطاف لله تعالى، وتوصل إلى إنعامه بإنعامه. والمراد بما أنعم به عليه هو ما آتاه من الحكم والعلم أو بالمغفرة، أو بالجميع. وأراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون، والانتظام في جملته في ظاهر الأمر، أو مظاهرته على ما فيه إثم. وقال الكسائي والفراء: ليس في قوله ﴿ فَلَنْ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٣/١٣)

أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ خبراً بل هو دعاء، أي: فلا تجعلني يا رب ظهيراً للمجرمين[1] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: وأراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يُسمَّى ابن فرعون. وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له[2] مما يدل على أن الإجرام شامل للانتظام فيه، أو مظاهرة الأمر الذي فيه إثم.

والإجرام هو مجاوزة الحد في البغي والفساد، ومنهم الكافرون، والمخالفون لأمر الله تعالى. فيشمل بذلك من تكون مظاهرته تؤدي وتُوقِع في الإجرام. فيعلل موسى عليه السلام عزمه على عدم إعانة من كان مجرماً، لقاء الإنعام عليه بالمغفرة، وبجميع أنواع الإنعام، وبما يفيد أن هذه النية والعزيمة مني يا رب، فأعني وسددني، ووفقني على ذلك. ومن فوائد ذلك أن نفي موسى عليه السلام إعانة المجرمين بما يُثبِت بها أنه سيكون معيناً بالخير لأهل الصلاح. فيخرج بجزمه على عدم مناصرة المجرمين، إثبات مناصرته لأهل الصلاح. وفي هذا التوسل ما يدل على انكساره لربه تبارك وتعالى، وشدة خوفه من ربه جَلَّ جلاله، ومن عاقبة ذنوبه، ورغبة منه عليه السلام في بقاء النعمة عليه التي أنعم الله عَزَّ وجل بها عليه. ليعطي المؤمنين دروساً في منهج علاقة العبد بربه عَزَّ وجل. وأن الخطأ وارد من الإنسان مهما بلغ من الطاعة، فعليه المسارعة في التوبة عند حصول الخطأ، فإن الله تعالى رحيم بعباده، فيقبل توبتهم، ويبدلها إلى حسنات. كما ورد في سورة الفرقان، حين قال تعالى ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ وبهذا يكون موسى قد اعتبر قتله للقبطي خطأً كبيراً. مما يدل على أنه أراد دفعه عن الذي من شيعته وليس قتله. كما يؤكد ذلك أن الله تعالى آته الحكم والعلم، وهذا يتنافى مع الحكمة والعلم، فيكون قتله هو قتل الخطأ، إضافة إلى ندمه وطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى. فغفر له ما كان منه.

ثم يخبر الله تعالى عن حالة موسى بعد هذه الحادثة ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ فتحول حال موسى عليه السلام إلى المزيد من الخوف ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا ﴾ فأصبح في المدينة التي وقع فيها الحدث خائفاً وجلاً من أن يقع له ما يكره، بسبب قتله القبطي، فيأتي من يطالب بدم المقتول، ويقتص منه، فكان حاله ﴿يَتَرَقَّبُ ﴾ أي:

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٦٤/٤)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٣٩٥/٣) ونقل عنه لقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٣/١٣-١٧٤)

يتحرز. فجعله هذا الخوف يتحرز، بالانتظار والتوقع، فيراقب كل ما حوله خوفاً من وقوع ما يكره، فإنه قد أصبح متوقع حدوث أمراً يكرهه، بما يبين قوة الخوف والهلع الذي أصاب موسى عليه السلام.

وفي تلك اللحظة التي يرقب ما حوله، وما يمكن أن يكون له ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ ففجأة يطلب منه الذي أعانه على القبطي يناديه على رجل آخر. وورد البيان لحالة موسى عليه السلام بالمفاجأة، ففاجأه النداء له ﴿ فَإِذَا ﴾ فهي تفيد المفاجأة بالرجل الإسرائيلي الذي ﴿ ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ وطلب منه المناصرة، فحصل بنصرته أن قتل موسى القبطي بسببه، فإذا بصوته يحمل صراخاً بالنداء ﴿ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ استنصاراً بموسى إلى درجة المبالغة بالصراخ الذي يحمل النداء بالمناصرة والمعاونة على مقاتلة رجل آخر، فإن دلالة ﴿ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ تفيد كمال المبالغة في النداء صراخاً وتطاولاً برفع الصوت إلى أقصى ما يمكن. فرد عليه موسى ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي: إنك غاوي، ظاهر الغواية، فهي واضحة فيك ومنك، فأنت شديد الضلال وكثير الشر، وسيء الفطنة والتقدير للأمور، فتقاتل من لا تقدر على مقاتلته، ثم تطلب من يعينك على غوايتك.

وبالرغم من معاتبة موسى عليه السلام للرجل للذي استصرخ يستنجد به، إلا أنه لم ير بد من نصرة المظلوم الذي من شيعته ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ فجملة ﴿ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ أعطت دلالة على أنه من القبط، وأنه قد ثبتت عداوتهم لبني إسرائيل، وأن القبط قد تمادوا في طغيانهم على بني إسرائيل. والبطش هو: الضرب الشديد والأخذ بقوة وعنف وقسوة. وتم تسمية الرجل بمثل تسمية المقتول سابقاً بأنه ﴿ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ فلما عزم موسى عليه السلام على نصرة الذي من شيعته، اعتقد هذا الذي من شيعته أن موسى عليه السلام يريد أن يبطش به، بناء على قول موسى له ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ نقل القرطبي عن ابن جبير رحمهم الله تعالى: أراد موسى أن يبطش بالقبطي، فتوهم الإسرائيلي أنه يريده، لأنه أغلظ في القول ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾

فسمع القبطي الكلام فأفشاه[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: فقال يدفع عن نفسه ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام. فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون، فألقاها عنده، فعلم بذلك، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى[٢] مما كان سبباً في هروب موسى عليه السلام إلى مدين.

فمن شدة خوف الإسرائيلي أنه بادر بسؤال موسى عليه السلام سؤالاً استنكارياً، وتذكيراً له بما كان منه مع القبطي، وكذلك عتاباً له إن بطش به. هل تريد يا موسى أن تقتلني كما حصل بالأمس منك، بقتلك الرجل. ثم عَقَّب على هذا السؤال بتقرير يستجدي به أن لا يفعل ذلك ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فإنك يا موسى لا تريد أن تتصف إلا بأن تكون ﴿جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قتالاً وبطاشاً، يستخدم قوته وتجبره. والجبار هو: العنيد، المصر على الباطل بالرغم من معرفته بالحق والحقيقة، فهو يعدل عن الحق وينحرف عنه إلى الباطل، وهو المتكبر، الذي يرى ما له من حقوق، ولا يرى لغيره من حق عليه.

وزاد على موسى بقوله ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فأنت يا موسى لا تريد ولا تميل إلى أن تكون ممن يقوم بالإصلاح بين الناس، وأن هذا الذي تريد أن تفعله معي ليس من الإصلاح. فعدل عن استصراخه ليعينه على القبطي إلى التسوية بينهما فيما تخاصما فيه. وهذا الموقف من المُستصرخ بموسى عليه السلام، يُبين كيف ينقلب الإنسان في وصفه للغير، فبمجرد أن تغيرت المصلحة الذاتية تغير الحكم. فبعد أن كان يستنجد به للنصر، فإذا به يصف ما كان من نصرة موسى له بالأمس أنها نوع من التجبر ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جباراً في كل مكان تحل فيه من الأرض، فليس مقتصراً على بقعة وحد من الأرض، ولا بأناس معينين محدودين. فالمواقف قد تغير الأحكام، وربما أيضاً أراد أن يدفعه عن نفسه بذلك الأسلوب.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٥/١٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٩٥/٣)

ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان مرحلة أخرى من مراحل حياة موسى عليه السلام من السفر والترحال، وما كان فيها من الأحداث التي تدل على عظيم تدبير الله تعالى لمن اصطفاه. وبدأ البيان بالذي جاء ناصحاً لموسى عليه الصلاة والسلام بأن يخرج من مصر، فقد قيض الله تعالى له ذلك الناصح الأمين ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ فقد علم رجل ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ أي: من أبعد طرف فيها عن وسطها، وهو آخرها، مما يدل على شيوع وانتشار خبر قتل موسى للقبطي، وخبر الاقتصاص من موسى عليه الصلاة والسلام، وذلك بقتله، حتى وصل أطراف المدينة، فقيض الله تعالى له ذلك الرجل الناصح الأمين ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ وكان من حرص هذا الرجل الناصح أنه جاء ﴿يَسۡعَىٰ ﴾ أي: مسرعاً، فكان حثيث الْخُطَى في مشيه، لشدة خوفه على موسى عليه السلام ، لِمَا عَلِمَهُ من خبر عزم أهل المدينة على قتله عليه الصلاة والسلام. ودل سعيه وجريه على أن الأمر قد تم اتخاذه بقتل موسى، إذ أفاد السعي ﴿يَسۡعَىٰ ﴾ الإسراع في نقل الخبر، للإسراع في الخروج من المدينة. مما يفيد قوة نصح هذا الرجل، وخوفه على موسى عليه الصلاة والسلام، وحرصه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال ابن عباس رضي الله عنه: وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون[1] وهو المشار إليه في سورة غافر. قال تعالى ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ ليدل على أن المؤمن لا يسكت عن المعروف والنهي عن المنكر، والحرص على سلامة أهل الإيمان وما يدور حولهم من الشر. وفي

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٩٣)

ذكر المكان الذي جاء منه الرجل الناصح ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ ما يدل على شيوع الخبر وانتشاره، حتى وصل لأطرافها، ومحبة الرجل للخير، ودفع الشر عن موسى عليه الصلاة والسلام، وقوة إيمانه، وذلك بعدم خوفه مما قد يترتب على نصحه لموسى، ونصحه للملأ بعدم قتلهم موسى عليه السلام، وتكبد متاعب المسير إلى موسى، والقيام بالواجب الذي أوجبه عليه إيمانه.

فخاطب هذا الرجل الناصح موسى عليه السلام بما اتخذه أشراف وكبراء القوم ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ ﴾ إن الملأ من أشراف ورؤساء القوم وكبرائهم من زعمائهم ﴿ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أي: يتشاورون، ويتآمرون من أجلك، فيأمر بعضهم بعضاً ﴿ لِيَقۡتُلُوكَ ﴾ وبناء على ذلك فإني أنصح لك بالخروج ﴿ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ فاخرج من مصر سريعاً ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ إني لك أنت يا موسى تحديداً خاصاً من المخلصين لك في نصحي لك. فجملة ﴿ إِنِّي لَكَ ﴾ تُظهر التخصيص، لزيادة الاهتمام، وبيان شدة الحرص على موسى عليه الصلاة والسلام، وأيضاً ليكون نُصْحُهُ أكثر أثراً وجدوى، ووقعاً في قلب موسى عليه السلام.

وقد أكد نصحه بنون التوكيد الملتصقة بضمير المتكلم ﴿ إِنِّي ﴾ واحد من الناصحين لك ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ الذين يصدقون في نصحهم، والمخلصين فيما ينصحون به غيرهم. ويظهر من فهم هذا الرجل وتواضعه أنه اعتبر نفسه واحداً من الناصحين ﴿ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ ليفيد أن هناك غيره مثله، فلم يحصر النصح في نفسه فقط، ويقصره على ذاته. مما يبين أثر الايمان، وأثر الدين على الأدب والتواضع والإخلاص. وجاء بصيغة الأمر ﴿ فَٱخۡرُجۡ ﴾ ليفيد التهويل والتحضيض على الخروج بسرعة.

فامتثل موسى عليه الصلاة والسلام لنُصح الرجل الناصح المؤمن الأمين، وخرج من المدينة ﴿ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فخرج موسى عليه السلام من مصر ﴿ فَخَرَجَ مِنۡهَا ﴾ وكانت حالته مملوءة بالخوف والترقب ﴿ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ فامتزج خروجه من مصر بأمرين قلقين للنفس وللطمأنينة: الأول: ﴿ خَآئِفًا ﴾ فأصبح في طريقه للهروب خائفاً وجلاً من أن يقع له ما يكره، من أحد جنود فرعون وأعوانه. والأمر الثاني: ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ فجعله هذا الخوف يتحرز، بالانتظار والتوقع، فيتلفت حول

ما يحيط به خوفاً من أن يقع به ما يكره فجأة، ومن أن يلحق به الطلب من فرعون وأعوانه، ويدركه فيأخذونه بالقتل. فأصبح يقلقه ذلك في سفره وطريقه. بما يبين قوة الخوف والهلع الذي أصاب موسى عليه السلام. مما يدل على أن الابتلاء قد يجري مع الخواص من الناس، لحكمة يعلمها الله تعالى، وليكون طريقاً إلى الخير الذي لا يتوقعه مَن حصل له الابتلاء.

ويلجأ موسى عليه السلام لربه تبارك وتعالى بالدعاء، قائلاً ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فينادي ربه بالربوبية ﴿رَبِّ ﴾ أنت ربي، فليس لي سواك يا رب ﴿نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أنقذني من القوم الذين اتصفوا بالظلم في دينهم بالكفر والطغيان، وبظُلمِهم لغيرهم بالاستعلاء والبطش. فإن دلالة ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ شاملة لاستيعاب جميع مفردات الظلم وأنواعه ودرجاته. بما يفيد أنه لا ينجيني من ملاحقتهم لي إلا أنت وحدك يا رب. وهنا لم يطلب النجاة من فرعون فقط، بل جَمَع جَمِيع القوم الظالمين. فملتهم ومنهجهم وهدفهم واحد تجاهه.

ثم يخبر الله تعالى بوجهة موسى عليه السلام التي اتجه إليها ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فلما خرج من مملكة فرعون وسلطانه اتجه نحو مدينة ﴿مَدْيَنَ ﴾ جنوب فلسطين، وشمالاً عن مصر. وهي خارجة عن سلطان فرعون وملكه. وهي التي كان فيها نبي الله شعيب عليه السلام. وتطلق مَدْيَن على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز، وهم أصحاب الأيكة[١] وقال قتادة: مدين: ماء، كان عليه قوم شعيب، وقال: مدين هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه[٢]وبدأ السياق الكريم بكلمة ﴿وَلَمَّا ﴾ التي أفادت التزامن والترابط بين نية انعقاد التوجه والعزم والشروع في السفر وبين التوكل والالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء الذي يطلب فيه أن يوفقه بلوغ مقصده ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ليفيد عدم الانفراد بالأسباب لتحقيق الْمُبتَغى، بل طلب العون والغوث من الله تعالى، فهو الهادي والمعين والميسر، وجالب الخير ومانع الشر ودافعه. وكلمة ﴿سَوَآءَ ﴾ تعني جميع أنواع وأبواب الاستقامة، المخالفة للاعوجاج والتيه والمتاهة في ﴿ٱلسَّبِيلِ ﴾ الذي هو الطريق الذي يقصده في سفره.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤١/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٥/٣)

كما أفادت جملة ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أن مدين في محاذات مصر لأن لفظة ﴿تِلْقَآءَ﴾ تشير إلى نحو مدين، أي وجهه واتجاهه نحو مدين، فأشارت دلالتها إلى دقة تحديد وضبط الاتجاه البعيد بين التي ذهب منها، والتي يقصدها. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وعني بقوله ﴿تِلْقَآءَ﴾ نحو مدين. ويقال: فعل ذلك تلقاء نفسه، يعني به: مِن قِبل نفسه. ويقال: داره تلقاء دار فلان: إذا كانت محاذيتها[١] وقال القرطبي أيضاً: لما خرج موسى عليه السلام فاراً بنفسه، منفرداً، خائفاً، لا شيء معه من زاد، ولا راحلة، ولا حذاء، نحو مدين للنسب الذي بينه وبينهم، لأن مدين من ولد إبراهيم، وموسى من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم[٢] عليهم الصلاة والسلام. ومدين مدينة أو قرية باسم: مَدْيَن بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وقد سُمّيت باسمه، وهي على مسيرة ثمانية أيام من مصر.

وحين توجه موسى عليه السلام تجاه مدين سأل الله تعالى أن يهديه الطريق المؤدي إلى مقصده، وهي مدينة مدين ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ عسى ربي أن يبين لي قصد السبيل إلى مدين. وإنما قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها[٣] وتفيد ﴿عَسَىٰ﴾ الرجاء والالتماس والطمع في هداية الله تعالى وتوفيقه لمقصده. كما تفيد جملة ﴿أَن يَهْدِيَنِى﴾ يدلني ويوفقني للحصول على مقصدي، وكلمة ﴿سَوَآءَ﴾ تعني: الاستقامة، المخالفة للاعوجاج والتيه والمتاهة في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي هو الطريق. مما يبين ويفيد فقر الإنسان لربه في كل شيء، ومنها معرفة الطريق، والوصول إلى المقصد والهدف. وهنا نلاحظ كثرة دعاء موسى عليه السلام في كل موقف. مما يعطي درساً للمؤمن بأن يسأل الله تعالى في كل شأنه من جلب الخير، ودفع الشر، وما يتوجس منه خيفة.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى وصول موسى إلى مدين، وقد طوى البيان الإخبار بأحداث الطريق، مما يدل على أن الله تعالى سهل له السبيل إلى مدين، فلم يحتاج الأمر إلى بيان، فانتقل القصص مباشرة إلى نقطة الوصول، وذلك بوروده ماء مدين ليشرب ويتعرف منه على الناس، لأن الماء هو موقع تجمع الناس ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فعندما بلغ ووصل إلى البئر

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠٢/١٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٦/١٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠٣/١٨)

التي يردها أهل مدين، فيستقوا منها، ويسقون بهائمهم من الأغنام والبقر وغيرها من الدواب، وجد خلقاً كثيراً من الناس.

وبدأ السياق الكريم بكلمة ﴿ وَلَمَّا ﴾ التي أفادت التزامن بين وصول موسى عليه السلام وبين وجود أمة من الناس يسقون، ليفيد التوافق والتوفيق من رب العالمين لموسى بهذا التزامن الذي سيكون له الأثر الكبير في مسيرة حياته. وليعطي أثراً تربوياً في تربية النفس على أهمية الفطنة في إدراك حكمة الله تعالى، وجميل وجمال تدبيره لعبده. فالذي زامن بين وصوله وبين الحال التي عليها البئر من تجمع الناس عليه هو الله تبارك وتعالى. وكم يحدث للكثير من الناس التوافق الذي لا يفطن له البعض، ولو فطن له لأدرك بديع تدبير الله تعالى وإحسانه.

والورود غالباً ما يُطلق على الذهاب للماء ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ كما يفيد الورود بلوغ الشيء والوصول إليه، فبلغ موسى عليه السلام ماء مدين، قادماً من مصر إلى مدينة مدين، وتَوَجَّه إلى حيث الماء. وهناك ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ أي: وجد على الماء، أي: على شفير البئر ﴿ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ جمعاً كبيراً من الناس يسقون ماشيتهم من هذا الماء. مما يدل على وفرته، وتكاثر الناس عنده للسقيا. ومن عمق البيان أنه لم يُذكر الذي يسقونه، وهو المفعول به، والاكتفاء بالفعل ﴿ يَسْقُونَ ﴾ ليفيد تعميم ما يُسْقَى، فيشمل كل ما يمكن أن يَشْرَب، لكثرة وتنوع الشاربين من الماء. كما أن كلمة ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أفادت تعيين مكان تجمع الأمة من الناس، بأنها كانت على الماء ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ أي: على الماء وليس على أمر آخر. وهذه من دقائق التفصيل والتحديد والتعيين الدقيق. حتى إذا ورد ذكر المرأتين على ما هو قادم بيانه يكون عين المقصد لهما هو السقيا من الماء.

ولكن لفت انتباه موسى عليه السلام حال امرأتين ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ ووجد من غير تلك الأمة الكثيرة امرأتين ﴿ دُونِهِمُ ﴾ أي: منزويتين ومنفردتين عن الناس، بابتعادهما عنهم، أي: في جانب مباعد قليلاً عن الأمة المجتمعة على الماء من الناس. وفي نفس الوقت كانتا منشغلتين بذود ماشيتهما ﴿ تَذُودَانِ ﴾ أي: تمنعان مواشيهما عن الاتجاه نحو الماء. ومن دقائق البيان أنه لم يذكر الشيء الذي تذودانه، فَحُذِف المفعول به، والاكتفاء بالفعل ﴿ تَذُودَانِ ﴾ ليفيد تعميم الذي تذودانه، ليشمل كل ما يمكن أن يُذَاد ويُمنع من أن يشرب ويسقي من المواشي وعموم ما يشرب من الحيوانات، مما يدل عل تنوع وتعدد ما عندهم وما معهم.

فتعجب من صنيعها. لأن في ذود أغنامها ما يستثير التساؤل، أن تكون الماشية موجودة بالقرب من الماء ثم تُحجز وتُمنع عنه. فإن حالها المتناقض والمنافي لعلة وجودها مع ماشيتها عند الماء، والامتناع عن السقيا ما يثير الاستغراب. فلشفقته وعاطفته ورجولته، وحكمته وأخلاقه دفعه ذلك أن ذهب إليهما، وسألهما عن سبب وعلة امتناعها ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ما شأنكما، فالخطب هو الشأن المهم، بما يفيد لماذا أنتما واقفتان في بُعد عن الماء، وعن الناس الذين يسقون مواشيهم، وتمنعون وتَرُدُّون مواشيكم عن ورود الماء، مما يفيد أن من هاله أمر يحتاج إلى عون ومعونة أن يسأل، وليس ذلك من باب التدخل في شؤون الناس، طالما أن النية سليمة وصحيحة.

وهنا أجابت المرأتان على استغراب موسى من حالها وشأنهما، وسؤاله عن علة امتناعهما عن سقيا مواشيهما ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ فقالتا إننا نمتنع عن الاختلاط بالرجال، ومزاحمتهم، فنتركهم حتى يخلوا لنا المكان منهم ﴿ حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ والصدور هو ضد الورود، والصدر عن الشيء الرجوع عنه. أي: حتى يرجع الرعاة بمواشيهم عن الماء. والرعاء ﴿ ٱلرِّعَآءُ ﴾ جمع راع أو راعي. فنذهب ونَرِد الماء، ونسقي مواشينا بعد ذهابهم بأغنامهم عن مكان الماء. فكان المانع لهم هو الحياء، وسُمُو التربية، مما يدل على أنهما من أسرة وبيت جليل وكريم، وصاحب ديانة وشأن في الشريعة. وبما يعطي درساً عميقاً في الحياء، وفي الاحتراز من مغبة الاختلاط، وأن يتحمل الإنسان في سبيل ذلك مشقة الانتظار، ومشقة ذود ما عنده عن أماكن الفتنة، وما يمكن أن يحدث عن المزاحمة والاختلاط.

ثم يذكران السبب عن عدم مجيء من يعولها ويقوم بشأنهما إلى الماء نيابة عنهما، فقالتا ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ وأبونا رجل كبير في السن، غير قادر على القيام بذلك. مما يدل على أنه هو الرجل الوحيد في البيت مع ابنتيه. ولذلك كانت تلبية الحاجة متعلقة بنا نحن المرأتين، فالذي ألجأنا لهذا الأمر هو الحاجة التي لا مفر منها.

فعندما عرف موسى عليه السلام علة وسبب ذلك ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فسقى موسى عليه السلام للمرأتين ما شيتهما، وورد السقاء لهما بصيغة الماضي ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ ليدل على الانتهاء من قضاء حاجتهن، بأن سقى لهما ماشيتهما. كما بين السياق العلة والسبب من سقياه الماء لماشيتها، فكلمة ﴿ لَهُمَا ﴾ دلت أن السقيا لأجلها، عطفاً لحالتها، ورأفتاً بهما، وليس

لتحصيل أجر على ذلك، وليؤكده أنه مباشرة تولى إلى الظل ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ وأفادت ﴿ثُمَّ﴾ الترتيب والتتابع، من غير فاصل وفصل بين الانتهاء من السقيا والتولي إلى الظل. ليدل على كريم أخلاق موسى عليه الصلاة والسلام. بل ورد السياق بهيئة التولي ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ التي تفيد الإعراض عنهما بالتوجه إلى الظل، أي: تركهما وذهب عن الماشية، بمخالفة ما كان عليه من المشاهدة والمعاينة. والتولي الرجوع المضاد لما هو عليه من الاتجاه والوجهة، فكان اتجاهه نحو الماشية، فعكس اتجاهه بحيث تكون الماشية خلفه. وهذا من كريم أدبه وأخلاقه، فقد أعطاه الله تعالى حكمة وعلماً. مما يعلم الإنسان كيف يكون بعد إحسانه على غيره. وفيه تكليم الرجل للمرأة الأجنبية عند الحاجة، وفي حدود المراد، وعدم الاسترسال، كما صنع موسى عليه الصلاة والسلام.

ومن توفيق الله تعالى أن كان هناك ظل شجرة، فتوجه إليه ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ليفيد حاجته إلى الراحة بعد عناء السفر، وليُدَبِّر اللهُ تعالى أمره بذلك السبب الذي هيأه اللهُ تعالى له، وهو لا يعلم عن مغبة ذلك الفعل من الإحسان والإكرام للمرأتين. ليبتهل إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع، كما هي عادته وشأنه في كل موقف، وفي كل حال من أحواله عليه الصلاة والسلام ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فدعا ربه باسم الربوبية ﴿رَبِّ﴾ الذي يفيد تحقيق وحدة الربوبية بأنها لله تعالى، وليست لأحد غيره أبداً، ويُثبِت بها أن الله تعالى رَبَّ كل شيء، ومالكه مُلْكَ إنشاء وتدبير وتصرف بما يشاء وكيف يشاء، ومتى يشاء. فهو رب كل شيء من العوالم. ثم يؤكد مطلبه من ربه عَزَّ وجل ﴿إِنِّي﴾ فَيُعَيِّن نفسه بأنه معترف بإنعام الله تعالى عليه ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ فيسترفد ربه تبارك وتعالى بالثناء والتمجيد له عَزَّ وجل بما أنعم عليه من الإنعام العظيم، فلم تُنسِه حاجته الساعة التي هو فيها سابق الإنعام وحاضره. بل عَبَّر عنها برفعة المعطي سبحانه وتعالى وعلوه وعزته، ورفعة مكانة ومكان الْمُنْعَم عليه ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ فدلالة ﴿أَنزَلْتَ﴾ تفيد علو وارتفاع منزلة ومكانة ومكان الله تعالى الذي أنزل الإنعام عليه من العلو بما يقضيه ويكتبه ربه له عَزَّ وجل. فهي جملة ممتلئة بتعظيم الله تبارك وتعالى، وإظهار موقعه بأنه تحت ربه وتحت فضله وإنعامه جَلَّ جلاله.

ثم يقرر فقره إلى الله تعالى ﴿فَقِيرٌ﴾ فبالرغم من إنعامك عليَّ بالنِّعَم التي لا تُعد ولا تحصى، فإنني فقير إلى مزيد عطائك، فلا استغني عنك بما أعطيتني. فيقرر به غاية التذلل بعد الاعتراف بجليل الإنعام. ليتحقق به التوازن بين ما تحقق وبين الحاجة. فالصحة نعمة، والإنجاء من العدو نعمة، والأمن نعمة، وتوحيد الله تعالى وعبادته بهدايته له عَزَّ وجل نعمة. وحاله من الجوع واللباس والمأوى وغيره فقير به إلى الله سبحانه

وتعالى. فيا رب أزل فقري، وسُد حاجتي. فإنه دعاء عظيم من كل وجه. وفيه تعليم للمؤمنين كيف يكون مع نِعَم الله تعالى الكثيرة، التي يجب أن يشعر ويحس بها ويذكرها، وألا تنسيه حاجته ما هو فيه من إنعام الله تعالى عليه. وأن يكون سؤاله لما يحتاجه لا يُبعده عما يرفل فيه من إنعام الله تعالى.

فيأتيه الجواب من الرب الذي دبر له ما كان فيه من ورود ماء مدين في اللحظة التي يتجمع الناس فيه عند الماء للسقيا، ويشاهد المرأتين اللتين تذودان، ويوفقه اللهُ تبارك وتعالى إلى سقيا ماشيتهما، لتبدأ حياة جديدة مع بيت وأسرة كريمة ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فتأتي إلى موسى واحدة من المرأتين اللتين سقا لهما، وهو تحت ظل تلك الشجرة ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾ فجاءته إحداهما وهي مملؤة بمشاعر الحياء. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مستترة بِكُم درعها، أو بِكُم قميصها[١] وفي ربط المشي بالاستحياء ﴿ تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾ كشف وبيان لقوة حيائها. فمن شدة حيائها أن ظهر عليها الحياء حتى في مشيها، وعلى هيئتها وتسترها في ملابسها. بما يفيد أنه بلغ الحياء بها حتى وصل إلى هيئة مشيها، فهو تعبير وكناية عن أن الحياء الذي بلغ في كل شيء منها حتى في مشيها. ليدل على المبالغة في وصف حيائها بأنه وصل إلى أقصاه، خاصة وأن كلمة ﴿ ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾ تفيد المبالغة في المشي المقيد بدلالة الاستحياء إلى أعلى درجاته. وليدل ذلك على نشأتها وتربيتها المستقيمة التي أظهرتها وظهرت بها في شخصيتها، وليعطي دلالة على أنها من بيت ذا شأن في الدين، فإنه بيت نبوة، إن كانت بنت نبي الله شعيب، أو كانت ابنة لأحد فروعه، والأكثر قولاً: أنهما بنتا رسول الله شعيب عليه الصلاة والسلام.

وقد استهل البيان بحرف الفاء ﴿ فَجَآءَتۡهُ ﴾ الذي أفاد التتابع لمجريات الحدث، بين دعاء موسى عليه السلام واستجابة ربي لدعائه، وكذلك بين إخبار المرأتين لأبيهما وبين دعوته لموسى عليه السلام. ذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى: أن الفاء تُؤذن بأن الله تعالى استجاب له، فقيض شعيباً أن يرسل وراء موسى ليضيفه، ويزوجه ابنته. وتُؤذن الفاء أيضاً بأن شعيباً لم يتريث في الإرسال وراءه، فأرسل إحدى البنتين[٢] وهذه من بلاغة الترتيب لمجريات الأحداث، وربط الأحداث بأسبابها، وسرعت تعاقبها في هذا السياق البديع، وترتيب الله تعالى العظيم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١٨/١٨)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٧٠/٨)

وقد طوى البيان الكريم ما دار بين المرأتين وأبيهما، والذي يُظْهِر خلاصته قوله تعالى عن قول أحداهن لموسى عليه السلام ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ قال القرطبي رحمه الله تعالى: فبهذا الكلام اختصار يدل عليه الظاهر، قَدَّرَه ابن إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه، وقيل: الصغرى أن تدعوه له. ونقل القرطبي أيضاً أن أكثر أقوال المفسرين: أن الشيخ الكبير هو رسول الله شعيب عليه السلام. فقال: وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ كذا في سورة الأعراف، وفي سورة الشعراء[1] ويدل على رجحان هذا القول هو: كلام شعيب لموسى عليهما السلام، عندما قابله والتقى به، وكذلك إفصاح موسى له، بأن قص عليه قصص فرعون معه، بما يدل على قوة الثقة التي حصلت من معرفة موسى به. وهناك من رأى أن الشيخ الكبير ليس هو نبي الله شعيب. وذكر السعدي رحمه الله تعالى المبررات التي يرى بها أنه ليس نبي الله شعيب، وإنما هو رجل صالح. فقال السعدي رحمه الله تعالى: وهذا الرجل أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس. فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون أن شعيباً عليه السلام قد كانت بَلَدُه مدين، وهذه القضية جرت في مدين. فأين الملازمة بين الأمرين؟[2] فهو أمر مختلف فيه، فإن لم يكن نبي الله شعيباً عليه السلام، فهو من فروعه، أو رجل صالح، على دين وشريعة شعيب عليه السلام، فتمسك بها واتبعها، فيكون من الذين آمنوا بشعيب واتبعوا ملته عليه الصلاة والسلام.

ثم بعد أن وصلت المرأة إلى موسى عليه السلام ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أخبرته بطلب أبيها له من أجل أن يعطيه أجرة ما قام به من السقيا. مما يدل على أن المرأتين وصفتا لأبيهما الذي حدث. ولعل أبوهما أراد مع إعطاء الأجرة للساقي لهما أن يرى هذا الرجل الذي اتصف بهذه النخوة والرجولة والأدب ومكارم الأخلاق، والصفات التي لا يمكن له أن يفرط في رؤيته.

وهنا ذهب موسى عليه السلام للرجل إكراماً لأبيها ولمجيئها. ولا يمكن لمثله أن يقبل الأجرة، ولكن ذهابه معها هو من باب التعاطف مع حالة الرجل الذي وصفتاه بقولهما: ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ وهنا ذهب موسى عليه السلام لمقابلة الأب. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قال المفسرون: لما سمع موسى هذا القول كرهه، وأراد أن لا يتبعها، فلم يجد بُدَّاً للْجَهْد الذي به من اتباعها، فتبعها. فكانت الريح تضرب ثوبها،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٩/١٣)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٦/٤)

فيصف بعض جسدها، فناداها: يا أمة الله، كوني خلفي، ودليني الطريق[١] وفيه تَكلِيم المرأة للرجل عند الحاجة، وفي حدود المراد، وعدم الاسترسال، كما صنعت المرأة في كلامها لموسى عليه السلام.

ثم ينتقل البيان إلى ما دار من حديث بين موسى عليه السلام والرجل الشيخ، أو النبي شعيب عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وبدأ البيان بكلمة ﴿فَلَمَّا﴾ لإفادة التزامن بين وصول موسى عليه السلام للرجل، وما أخبره به عن شأنه مع فرعون وقومه وبين التطمين وتأكيد نجاة موسى من فرعون وقومه. فهو تزامن وتناسق وتوفيق من الله تعالى بين قول موسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ وبين مقول الرجل الصالح من التطمين لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وليفيد التوفيق من رب العالمين لموسى بهذا التزامن الذي سيكون له الأثر الكبير في مسيرة حياته.

فعندما وصل موسى عليه السلام إلى الرجل ﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: قص موسى عليه السلام على هذا الرجل سواء كان شعيباً عليه السلام، أو أحد المؤمنين، فقد قص عليه تفاصيل ما حدث بينه وبين فرعون وقومه. وأفادت كلمة ﴿وَقَصَّ﴾ الإخبار المتتابع لتفاصيل الأحداث، وبأن موسى عليه السلام أعلمه بجمع مجريات الأحداث التي حصلت مع فرعون وقومه، كما أن كلمة ﴿ٱلۡقَصَصَ﴾ تفيد الجمع. أي: جميع المواقف والأحداث، التي تُشكل كل واحدة منها قصة، ابتداء من رعايته له صغيراً، وما يتعلق بدينه، وما يتعلق ببني إسرائيل، وقتله القبطي. وبما يعطي دلالة: كمال ما أفصح به موسى عليه الصلاة والسلام لنبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام. ويؤكد هذا الإفصاح بأنه في وقت وجيز حلت الثقة التامة، فلا يمكن أن يخبر موسى عليه السلام بكل ذلك إلا لرجل يثق به، فيكون بذلك هذا الرجل هو نبي الله شعيب، أو من المؤمنين بشعيب. مما يدل على أنه حصل لموسى عليه السلام الثقة في الرجل بما لاحظه ورأى من سلوك أهل هذا البيت، وعلى رأسهم نبي الله شعيب عليه السلام، فلم يترك ويُخفِ عنه شيئاً من التفاصيل.

وهنا رَدَّ شعيب عليه السلام بحكمته وتجربته ومعرفته بما هداه الله تعالى إليه أن الله سبحانه وتعالى قد أنجا موسى عليه السلام ﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فبدأه بما ينفي الخوف عنه ويزيله ﴿قَالَ لَا تَخَفۡ﴾ بما يفيد أزل عن نفسك الخوف واطمئن. ثم أكد له أن الله تعالى قد نجاه من

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٦/٩٥)

فرعون وقومه ﴿ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ووردت كلمة ﴿ نَجَوْتَ ﴾ بصيغة التحقق، بالفعل الماضي، الذي يفيد الانتهاء من مرحلة الخطر، وإمكانية أن يلحق بك. فقد حصلت لك النجاة والأمن والأمان، وسَمَّى شعيب عليه السلام فرعون وقومه بما أخبره موسى عليه السلام عنهم، فقال ﴿ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فسماهم بالقوم الظالمين بشركهم، وكفرهم، وتجبرهم، وقهرهم لبني إسرائيل، وقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم للخدمة. مما يدل على أنه على علم ودين، فلا يجزم بذلك إلا من يكون ذا علم عميق في الدين، بما يشير إلى أنه رسول الله شعيب عليه السلام. وبمثله وقع للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، إذ خرج من مكة خائفاً من تعقب قومه له صلى الله عليه وسلم ليقتلوه، فحفظه الله تعالى مهاجراً إلى المدينة، ليحصل له الأمن والأمان. ثم يعود إلى مكة فاتحاً لها، كما عاد موسى عليه السلام إلى مصر رسولاً من الله تعالى إلى فرعون وقومه، على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وفي هذه المحن من الأحداث التي تعرض لها موسى عليه السلام ما يفيد أن الله تعالى قد يبتلي العبد، فيأخذه الابتلاء إلى المحامد التي لم تكن تخطر بباله، وكأن الابتلاء قوة تدفعه وتسوقه إلى الخير سوقاً. فقد أنعم الله تعالى على موسى عليه السلام بالنجاة من القتل عندما كان مولوداً رضيعاً، وكذلك نجاته من القتل عندما أصبح شاباً يافعاً بسبب قتله الرجل القبطي خطأً، وأنعم الله تعالى عليه بأن عاش مُنَعَّمَاً منذ طفولته إلى خروجه من مصر، وهو في رغد من العيش في بيت فرعون، ورزقه الحكمة والعلم، ثم يُبتلى بالهجرة والسفر وحيداً في طريق مُوحش، ليتعلم به قسوة مؤقته، وخوفاً وجوعاً وعطشاً، وتعباً، وليتعلم منه تقلبات الحياة، وشظفاً بعد رغد، وخوفاً بعد أمن، ومشرداً بعد سكون. لتجعل منه رجلاً تقلبت به الحياة، فَتَلَقَّى وتعلم بها دروساً كثيرة، لا يمكن له أن يحصل عليها بغير ذلك، وسيتعلم رَعي الغنم، ليعرف كيف يسوس الناس قبل أن يصبح نبياً رسولا. إنها حكمة الله تعالى، والتي تُعَلِّم المؤمن كيف يتلقاها ويتعامل معها بالصبر والدعاء والرجاء بأن يُخلِف له بالمتاعب والصعاب خيراً.

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى حديث حصل بين الأب وابنته، ليترتب عليه الخير الكثير لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ فقد

أشارت إحدى ابنتي الرجل الصالح، أو نبي الله شعيب على أبيها أن يستأجر موسى ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ ﴾ أي: اتخذه أجيراً يعمل بالأجرة في رعي ماشيتك، ويقوم بسقيها والعناية بها. ثم عللت مشورتها لأبيها بأهم صفات هذا الرجل الغريب ﴿ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ إنه أفضل وأخير من تستأجره وتستعمله في شأنك عموماً، لتستوعب كلمة ﴿ خَيۡرَ ﴾ الأفضلية التي تستوجب عدم التفريط فيه، وسواء كانت الأفضلية مما هو متوقع استئجارهم من الناس أو ممن سبق وأن استأجرهم. فإنه مُتَّصِف بأهم ميزتين لأداء هذا العمل بكفاءة وقدرة، وهما ﴿ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ فالأولى: القوة ﴿ ٱلۡقَوِيُّ ﴾ في بدنه ونشاطه، لِمَا رأت من جهده وقوته وقدرته في سقي الغنم، وكذلك ﴿ ٱلۡأَمِينُ ﴾ لِمَا رأت من أمانته في سقيا الغنم، من غير استعجال عليها حتى ارتوت، بالرغم من ظهور التعب ومشقة طريق السفر عليه، وأمانته في حديثه ومسيره معها في الطريق. لأنه ليس لها معرفة بتلك الصفتين إلا من خلال ذلك الموقف، وبالتالي فإن الأرجح أنها هي التي ذهبت تدعو موسى عليه السلام لأبيها، وهي الكبرى. وفي إدراكها لتلك الصفتين ما يدل على نباهتها. كما أن هاتين الخصلتين مهمة جداً في كل وظيفة وعمل، فالقوة في العمل تعني النشاط والقدرة والفهم الذي يقوى به الأداء، والأمانة التي تعطي وتبين الحرص عليه، والمحافظة على أدائه بإخلاص وإتقان، مع مراعاة مصلحة العمل وأنظمته، وعدم المجاملة فيه، أو استغلاله للمنافع الشخصية، فيكون حريصاً على سلامة كل ما يتعلق بالعمل، وبإنجازه وإتمامه.

ومن جميل أدبها أنها لم تشرع في بيانها إلا بعد أن قدمت النداء بلفظ الأبوة ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ المتضمن لياء النداء، الذي يحمل الطلب والرجاء حتى يكفيهم تعب الرعي والسقاء لماشيتهم. ثم ألصقت به لفظ الأبوة ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ الذي يحمل الصلة ودرجة القرابة بينهما، إضافة إلى التأدب والاحترام والتقدير. وتمثل في خطابها الحرص من وجهين: الأول: صيغة الطلب بأنه جاء بفعل الأمر ﴿ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ ﴾ الذي يفيد قوة الحث والتحضيض لأبيها، وكذلك إيراد فعل الاستئجار بالفعل الماضي ﴿ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ﴾ الذي يفيد التحقق، وسبقه حرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يؤكد خيرية الاستئجار والتفضيل له عن غيره، سواء مما هو متوقع استئجارهم، أو ممن سبق إن استأجرهم. فهو حث يفيد شدة الحرص. ولعل هذا كان السبب في أن جعل ثمن الاستئجار زواج ابنته له، إضافة إلى ما قصه موسى على أبيها عليهما الصلاة والسلام.

اقتنع والدها بما قالت من الرأي والمشورة، فانتقل الخطاب مباشرة إلى تفاوض والدها مع موسى عليهما السلام في هذا الشأن. مما يفيد أهمية قبول المشورة الناصحة الجيدة من الأصغر، وأن الْمُشَاهِد والْمُعَاين للأمر

والوضع، غير الذي لم يشاهده، وأن الرأي قد يكون عند المرأة، وأن الله تعالى يعطي الفطنة في الأمر لمن يشاء، وفي قبول أبيها منها مشورتها ما يدل على أهمية التواضع للرأي الصواب، واغتنامه والسعي في تحقيقه بألطف الأساليب ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ قال والدها لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ ﴾ فقدم له ما يُرَغِّبه في العمل عنده، وذلك بإرادته من تزويجه بإحدى ابنتيه، وليثبت له رغبته الشديدة، وثقته، وإيثاره. كما أن فيه من الفوائد: أن الرجل إذا رأى صاحب الكفاءة فليبادر بعرض الزواج عليه، وأن ذلك من الحكمة، واغتنام الفرصة.

ثم بعد أن عرض عليه الزواج أخبره بالمقابل المطلوب منه ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ ﴾ ومقابل هذا التزويج تخدمني ثمان سنين. ومن أدب الكلام أن جعل التفضل من موسى وليس منه على موسى بقوله ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ﴾ أنت الذي تأجرني، ولم يقل على أن استأجرك ثمان سنين، بل ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ﴾ تتفضل علي بالعمل معي ثمان سنين، ثم بعد أن حدد الأصل في المدة، تدرج معه إلى الأفضل للأب من حيث المدة الزمنية ﴿ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ ﴾ فإن تفضلت بأن تُكمل عشر سنوات فذلك تفضلاً من عندك، بما يفيد أنني راغب في العشر سنين، لكن يمنعني من ذلك الخشية من أن أشق عليك بها. مما يفيد أهمية العدل في التفاوض، بأن لا يستغل صاحب الحاجة حاجة غيره، فيسرف في الاستغلال الذي يخرج عن مكارم الأخلاق.

وهذا يدل على كريم أخلاق والدها، حيث علل عدم المطالبة بالعشر سنين من أجل أن لا يشق عليه ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ ﴾ وأسند نفي فعل المشقة على نفسه، ومؤكدها بحرف التوكيد ﴿ أَنۡ ﴾ الذي يؤكد ما بعده من الكلام، فليس لي إرادة التَّعسِير عليك بما يُتعبك، ويُكلفك ما لا تريد. فلن ألزمك بأن تلتزم بأتم وأوفى الأجلين، وهو العشر حجج. بما يفيد: ليست لي النية ولا الطمع في أن أكلفك وأطلب منك ما يشق عليك بكثرة السنين وطول مدة المكوث عندي. وبما يفيد أيضاً أنك بعد هذه السنوات الثمان أو العشر لك الحق أن تترك العمل عندي، وتنتقل بزوجتك حيث تشاء. ويكون بذلك قد اطمأن على ابنته مع زوجها، واستفاد من ذلك الوقت. مما يفيد أهمية الحكمة في التعامل، والرحمة بالأجير، وإكرامه، وسياسة الأمور بالرؤية الحكمية.

ثم بين وأوضح له ما يزيد من اطماعه في قبول ما عرضه عليه من العرض الذي سينتفع به موسى عليه السلام، فأخبره بما هو عليه من التسامح ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي: صالحاً في حُسن التعامل ولين الجانب، فستجد مني الوفاء والأمانة والصدق، وحسن الصحبة أثناء تعاملك معي. فنفى عن نفسه ما هو ضد الصلاح، بما يفيد أنني مُتحلي بأعمال وأخلاق الصالحين، من اللين ولطف المعاملة، والوفاء بما نتفق عليه. وقد ربط ذلك بمشيئة الله تعالى ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ مما يبين أن ارتباط والدها بربه تبارك وتعالى كان كبيراً. وأنه مفوض أمره لربه عَزَّ وجل، وهو العالم بما سيكون. فهو مدرك أن مشيئة الله تعالى فوق كل مشيئة وتوقع وأمل. وفي ذلك جواز أن يذكر الإنسان بعض محاسنه لمن يجهلها، من أجل تحقيق مصلحة وفائدة، حتى يطمئن المعني بالأمر. ولكن يجب أن تكون صِدقاً لا كذباً وتحايلاً. والله يعلم من كل أحد حقيقته، ونيته، إن كانت تغرير واحتيال على الغير، والتظاهر بما ليس فيه، أو كانت على حق. فيخرج هذا من تزكية النفس، لأنه لم يكن من أجل التمدح والتفاخر والارتفاع على الغير. كما أن في هذا التزويج بالإجارة ما يفيد جوازه في شرعهم.

ثم يخبر الله تعالى بما رَدَّ به موسى على والد البنت عليهما الصلاة والسلام، فقد أجرى الموافقة بأسلوب التوثيق، إذ وَثَّقَ ما قاله والدها، على نسق قوله، وذلك بإعادة الشروط المتوافق عليها بينهما ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾ فالقائل هو موسى عليه السلام، بما يفيد الموافقة بالبيان الصريح منه للرجل ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ ﴾ أي: فذلك الشرط بأن تزوجني ابنتك على أن آجُرَك ثمان حجج أو عشر، هو شرط منعقد بيني وبينك. وأكَدَتْ وأفصَحَتْ جملة ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ ﴾ أن يلتزم كل واحد مِنَّا الوفاء بما التزم به، وأوجبه على نفسه، واتفقنا عليه، فلا يخل به أحد منا.

ثم قال موسى عليه السلام في كلامه ما يُفَصِّل ويوضح به شأن الأجلين ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ ﴾ هذا الاتفاق والتعاقد بيني وبينك على أن يكون الأجل ثمان سنين، وهو المتفق عليه بيني وبينك، أو الأجل بعشر سنين وهو اختياراً مني إن أردت ذلك، فيصبح ليس لك الحق في إلزامي بغير الثمان سنين، فأيما الأجلين قضيت لك به فإن عليك أن تقبله مني، ثم يشترط ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ ﴾ فلا ظلم علي بأن تطلب الزيادة على ما أقضيه من أحد الأجلين، فلا مجاوزة لك عليَّ حين أتمم لك ما اتفقنا عليه، فلا تُوجب عليَّ غيره. وفي هذا احتراز من موسى عليه السلام من أن تتغير الأحوال؛ فتتغير النية. ويقابلها بأن لا أطلب إنقاص المدة المتفق عليها.

ومن دقائق البيان أن ورد لفظ العدوان بصيغة العموم، ليفيد جميع أنواعه ومفرداته ودرجاته، بأي نوع من التجاوز على ما اتفقنا عليه. والعدوان مجاوزة الحد في غير ما اتفق عليه. ثم استشهد بالله تعالى على هذا الاتفاق ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ وإننا نُشهد الله تعالى على ما تفقنا عليه، فإن الله تعالى على ما أوجب كل واحد منا على نفسه لصاحبه شهيد وحفيظ. وهنا لم يقل: والله على ما أقول وكيل، بل وردت بصيغة الجمع، لتكون على الطرفين معاً. وهذا يفيد أهمية الإفصاح والاحتراز عند التعاقد، وأنه إذا لم يتمكن من وجود الشهود، أن يُشْهِد أهل التعاقد ربهم تبارك وتعالى، فإن في إشهاد الله تعالى ما يغرس الخوف من المخالفة إن وردت وتهيئت الفرصة لها، فالخوف من الله عَزَّ وجل عند المؤمن أقوى وأشد أنواع المخافة التي تُوجب الالتزام بما يتفق عليه الأطراف بينهم. وفيه من الفوائد: الانتفاع بالصالحين، واغتنامهم، كما يفيد هذا أن الزوجة تكون مع زوجها أين ما حل ورحل، وأن ل للأب أو الولي أن يستوثق لابنته، ويتحرز عليها بما يراه مناسباً، وإذا وجد الكفاءة في رجل فينبهه إلى رغبته في تزويجه، ولا تأخذه الأنفة في ذلك. وكذلك من وجد امرأة صالحة فلا يتركها، بل يغتنمها، فإنها غنيمة جليلة، وأن الرجل الصالح في نفسه وبيته يظهر صلاحه على أهله. وأن على الرجل ألا يُحجِّر الصلاح على نفسه ويهمل مَن هم تحت مسؤوليته.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ
نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ
مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ
أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ
إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

وبعد أن تزوج موسى تلك الفتاة، وانطوت الأيام والسنون، وأكمل موسى ووالدها ما اتفقا عليه من عدد الحجج التي هي: الثمان سنين، أو أن يستكمل موسى عليه السلام العشرة تفضلاً، والتي لم يوجبها التعاقد عليها إلا أن تكون تفضلاً من موسى عليه الصلاة والسلام، وهو العهد والظن به عليه الصلاة والسلام، لكرمه وتقديمه لمكارم الأخلاق عن أن يقتصر على دون العشر سنين، فاستوفى كل منهما ما تعهد به للآخر. فقال تعالى بعد أن طوى السياق تلك المدة لعدم الحاجة لمجرياتها ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ

مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ فلما استوفي وأتم موسى عليه السلام ما لصاحبه من حقوق المدة الزمنية التي شرطها عليه، سار بأهله خروجاً من مدين إلى مصر، حيث الأقارب والموطن ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ ﴾ وهنا لم يعين الإخبار عن أي المدتين استوفى موسى عليه الصلاة والسلام، لأنه لا يترتب على تعيينها شيء من أهداف السياق. فورد البيان والتركيز على استيفاء الاتفاق بانقضائه ووفائه به، وعين القرآن الأجل ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ ﴾ وهي المدة، لأنها الركيزة الأساسية لوالد زوجته. والظن بموسى عليه الصلاة والسلام الكمال في الوفاء بأنها عشر سنين. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سُئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمها وأخيرهما[1] وأتمها وأكملها هي العشر سنين. مما يفيد وفاء موسى عليه السلام، وأنه لم يستعجل على والد زوجته. مما يعطي درساً في الوفاء، وألا يستطيل المرء ما اتفق وتعاقد به مع غيره.

فبعد أن استوفى موسى كمال الأجل ﴿ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ﴾ أي: ذهب بأهله سيراً. قال القرطبي رحمه الله تعالى: فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء، لِمَا له عليها من فضل القوامة، وزيادة الدرجة، إلا أن يلتزم لها أمراً، فالمؤمنون عند شروطهم[2] وفي طريقه ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ أي: أنه أبصر ناراً واضحة جلية، وأنها كانت مجاورة لجبل الطور، قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن الإيناس: الإبصار الْبَيّن الذي لا شبهة فيه، وقيل هو إبصار ما يؤنس به[3] وهنا قال لأهله مخاطباً لهم اجلسوا وسأذهب إليها ﴿ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا ﴾ فطلب من أهله البقاء في مكانهم ﴿ ٱمۡكُثُوٓاْ ﴾ حتى يعود إليهم، وأوضح موسى عليه السلام وبين لأهله ما رأى بأسلوب التأكيد ﴿ إِنِّيٓ ﴾ ليبعث في نفوسهم الطمأنينة والثقة، مما يفيد أهمية إشراك الأهل فيما يحسه ويراه الراعي لهم، وأن لا يتسلل عنهم، فلربما شاركوه الرأي. بل من حُسن صحبته وعشرته أن ذكر لهم الهدف والغاية من ذهابه إليها ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ رجاء أن آتيكم منها بالخبر الذي قد ينفعنا ويهدينا إلى الطريق الذي يوصلنا لغايتنا. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال من يهديني إلى الطريق، وكانوا شاتين، وضلوا الطريق، فلما رأى

([1]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٥/١٨)

([2]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٦/١٣)

([3]) الزمخشري، الكشاف (٥٢/٣)

النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق، آتيكم بنار توقدون بها[١] رجاء أن أحصل من هذه النار على أحد الهدفين: الأول: ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: علم بشأن هذه النار المتوقدة، فأجد على النار دليل إرشاد إلى الطريق الذي فَقَدُوا اتجاهه، فيتبينوا من ذلك الهادي الذي على النار، ما يعرفون به اتجاه الطريق لمقصدهم. وكلمة ﴿بِخَبَرٍ﴾ تستجمع جميع أنواع الخبر، لأن الخبر متنوع بحسب نوع الحدث، وأسبابه.

وأما الهدف الثاني فهو: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أو آتيكم منها بجمرة. لأن الجذوة: هي الجمرة الملتهبة. وهي الوسيلة السائدة التي يتمكن منها الإنسان الإفادة من النار، ونقلها من مكان لآخر. والهدف من المجيء بها هو للتدفئة من برد الشتاء. مما يدل على أنه كان ذلك في ليل مظلم. أي: أن الأمر كان ليلاً. ودلت جملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أن الوقت كان شتاء، وكان الطقس أو الوقت شديد البرودة، والمقصد والهدف من إحضار شعلة النار ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون بها من شدة البرد. ومؤكداً ذلك بحرف التسوية بين الهدفين ﴿أَوْ﴾ فإن حصل على الأول فنعمة، وإن حصل على الثاني فنعمة، وإن حصل عليهما معاً فذلك أجزل في التحصيل وتحقيق المراد.

فذهب موسى إلى موقع النار، فتفاجأ بمن يناديه ويخاطبه باسمه في الليل المظلم الشاتي مع شدة برودته ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فعندما وصل إلى موقع النار التي رآها، أي: من جهتها وناحيتها ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ﴾ أي: عندما وصل إلى موقع النار جاءه وورَدَهُ نداء. والنداء: هو طلب الإقبال والاستماع والانتباه، وغالباً ما يكون باسم الْمُنَادَى إذا كان معروفاً لدى الْمُنَادِي. ومن جمال السياق احتوائه على التشويق ابتداء، بأن لم يُذْكَر اسم الْمُنَادِي لموسى عليه السلام ﴿نُودِيَ﴾ ليُحْدِث ذلك تشوقاً عند القارئ والمستمع لآيات الله تعالى، لمعرفة من هو الْمُنَادِي. وكذلك من جمال التناسق بين البيان وبين واقع الحال لموسى عليه السلام، أنه لَمَّا كان سياق المنادي غير معروف لموسى ابتداء، ورد السياق كذلك بصيغة إبهامه، وذلك بعدم إظهاره وبيانه، ليتناسق ويتساوى الحال بين موسى وبين من يخاطبه القرآن في شأن موسى. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: أُدخِل في تصوير تلك الحالة بأن موسى ناداه منادٍ غير معلوم له، فحكى نداؤه بالفعل المبني

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥١/٣)

للمجهول[١] وبلا شك أن حال موسى في تلك اللحظة هو الانبهار والترقب لمعرفة مَن صاحب الصوت الذي يناديه باسمه تحديداً في ذلك المكان الذي يجهله، ولا يعتقد أن أحداً يعرفه في ذلك المكان، أو أن يراه رؤية واضحة في ذلك الليل الشاتي.

وكان النداء لموسى عليه السلام ﴿مِن شَـٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَیۡمَنِ﴾ أي: فَوُرُدُ النداء لموسى عليه السلام من جهة ﴿شَـٰطِیِٕ﴾ أي: جانب، وطرف ﴿ٱلۡوَادِ ٱلۡأَیۡمَنِ﴾ أي: عن يمين موسى عليه الصلاة والسلام، أي من شق الوادي عن يمين موسى عند الطور. قال مجاهد رحمه الله تعالى: شِق الوادي، عن يمين موسى، عند الطور[٢] فتبين من ذلك أن حال وهيئة المكان أنه وادٍ ﴿فِی ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَـٰرَكَةِ﴾ أي: في الجزء المبارك من طرف الوادي. والبقعة هي الجزء والقطعة من الأرض. فقد أصبح هذا المكان مباركاً بما حدث فيه من الحدث العظيم، بأن كلم الله تعالى فيه موسى تكليماً مباشراً. وتزويده بالآيات، واصطفائه بالرسالة. مما يبين رفعة منزلة ومكانة موسى عليه السلام عند ربه سبحانه وتعالى، بما اصطفاه وخَصَّه به. كما يفيد أن لله تعالى أن يختار ويصطفي من الأمكنة ما يشاء، كما يصطفي من البشر من يشاء، فهو المالك سبحانه وتعالى، وهو الذي يصطفي ويختار، وليس لأحد أن ينشئ مكاناً ويُضفي عليه البركة. ثم يزداد التوصيف للمكان من رب العالمين، بأن المكان هو ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: من جانب الشجرة، وعند الشجرة. وعن قتادة رحمه الله تعالى، قال: الشجرة عوسج. وقال مُعمَّر، وقال غير قتادة رحمهم الله تعالى: عصا موسى من العوسج، والشجرة من العوسج[٣]

ثم يخاطب الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام مبيناً له أن الذي يكلمه هو الله رَبُّ العالمين ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰۤ إِنِّیۤ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَـٰلَمِینَ﴾ يا موسى إن الحال والشأن أني أنا الله رَبُّ العالمين. فابتدأه بنون التوكيد ﴿أَن﴾ التي تؤكد حقيقة ما بعدها من البيان، ثم تلاه ياء النداء ﴿يَـٰمُوسَىٰۤ﴾ لشد الانتباه، بأن ترعني سمعك وانتباهك، ثم ذكر وعَيَّن الْمُنَادَى باسمه ﴿يَـٰمُوسَىٰۤ﴾ ليدرك موسى ويُوقِن أن الذي يناديه يعرفه باسمه حق المعرفة، ولا يمكن أن يكون إلا الله عَزَّ وجل في ذلك المكان من الليل الذي إن استطعت أن ترى أحداً فلن تستطيع أن تعرفه من ظلمة الليل. ليتحقق بذلك كمال الاطمئنان من جهة المتكلم الذي

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢٧/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤١/١٨-٢٤٢)

(٣) المرجع السابق (٢٤٢/١٨)

يسمعه ولا يراه موسى عليه السلام. ثم تلاه التعريف العظيم، الأتم الأكمل بذاته سبحانه وتعالى، مبتدئاً **(بإن)** التي تؤكد ما بعدها من الكلام ﴿إِنِّي﴾ والذي لحق به حرف ياء الْمُخَاطِب لموسى، وهو الله تبارك وتعالى، وهو ضمير الشأن، أي: الشأن والأمر الْمُتَحَدَّث عنه. فهو كناية عن الأمر والشأن الذي يتم تناوله. ثم تلاه ضمير المتكلم ﴿أَنَا﴾ الذي زاد ما قبله من التعريف تأكيداً. والذي أفاد تقرير ما بعده، من أن المتكلم هو الله سبحانه، جَلَّ جلاله ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فلم يقل سبحانه وتعالى: أنا الله، بل ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ليتحقق به ما سبق من التأكيدات والبيان. إنه أنا الله المنادي لك يا موسى. ثم ذكر مقاماً عظيماً هو مقام الربوبية لكل ما خلق عَزَّ وجل، ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: رَبَّ كل شيء ومالكه والمتصرف فيه.

وبعد هذه المقدمة التي يُزيحُ بها الله تعالى رهبة الموقف، حتى يستقبل بها موسى عليه السلام الآيات والحجج العظام، يأمر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام أن يطرح عصاه أرضاً ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ يأمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام بأن يُلقي عصاه، فيطرحها ويقذفها على الأرض. فأتمر موسى فوراً لأمر ربه تبارك وتعالى فحدث ما لم يكن يتوقع، بأن تحركت العصا ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ فقد تحولت مباشرة، وفي نفس الوقت إلى حية تمشي على بطنها على الأرض بقدرته سبحانه وتعالى، فكانت ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجان هو نوع من الحيات. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والجان ضرب من الحيات، أسرعه حركة، وأكثره اضطراباً[١]

فلما شاهد وعاين موسى ذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ أي: تركها وذهب عنها، بمخالفة اتجاهه نحوها حتى لا يشاهدها على تلك الحال، وذلك لما حصل له من المفاجأة التي لم يتوقعها من أن عصاه تتحول إلى حية تسعى في اضطراب وحركة سريعة شديدة، ولذلك وصف سبحانه وتعالى إدباره بالتولي عنها ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ والتولي الرجوع المضاد لما هو فيه من اتجاهه ومُقبل عليه، فكان اتجاهه نحو العصا، فعكس اتجاهه بحيث تكون العصا خلفه، والإدبار مماثل للتولي، ثم يؤكد ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يرجع إليها من شدة ما أصابه من الذعر.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٦٩)

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والتعقب: الرجوع بعد الانصراف. مشتق من العقب. لأنه رجوع إلى جهة العقب، أي الخلف[١] وهو تأكيد على شدة توليه. ومن بلاغة البيان أن السياق حذف ما استغنى عنه بغيره. فلم يذكر أن موسى عليه السلام ألقى عصاه، اكتفاء بالأمر الذي صدر فأغنى عن إعادة البيان ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: في الكلام محذوف، تُرِك ذكره. استغناء بما ذُكِر عما حُذِف، وهو فألقاها فصارت حية تهتز[٢] فلم يذكر السياق ما أغنى عنه غيره، حيث أغنى تحول العصا إلى حية كأنها جان عن ذكر إلقائها، واكتفاء بالأمر، والتحول لها، لأن تحول العصا دليل على أنه ألقاها، وهذا من بلاغة البيان، وهو الإيجاز في غير إعجاز.

وهنا يناديه الله تبارك وتعالى ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴾ فيناديه ربه تبارك وتعالى باسمه ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ ﴾ زيادة في التطمين ﴿أَقْبِلْ ﴾ أي: ارجع إلى ما كنت عليه، وارجع إلى عصاك وحيث كنت ﴿وَلَا تَخَفْ ﴾ ولا يحدث لك الخوف مما رأيت، من شأن تحول العصا إلى حية تسعى، ثم زيادة في التطمين يبين له عَزَّ وجل أنه آمن من كل ما يتخوف منه ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴾ إنك واحد من الآمنين الذين أَمَّنْتُهُم من الخوف. فقد اصطفيتك مثلهم. مما يفيد أنه من المصطفين بالرسالة، كما قال تعالى في سورة النمل ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فمن اختصهم الله تعالى بالرسالة لا يجعلهم الله تعالى يخافون، فلا يخاف عندي من اخترته رسولاً. وهذه كرامة عظيمة، وعلامة ظاهرة على الأنبياء والمرسلين في مواجهتهم لأصحاب النفوذ والبطش والجبروت من غير خوف ولا ارتباك، كمواجهة موسى عليه السلام لفرعون، ومواقفه معه. مما يفيد أني اصطفيتك رسولاً، فأصبحت منهم. وهو تعليل للنهي عن الخوف، فعُد وارجع إلى أمنك وأمانك وعصاك واطمئن.

ثم بعد أن انتهى موسى عليه السلام من معرفة الآية الأولى يتدرج معه التوجيه الكريم إلى آية أخرى، إذ قال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ أدخل يدك في داخل ثوبك، من فتحة الثوب أو القميص، وقد ورد في هذه الآية الكريمة

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٤٢/٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/١٨)

التعميم بإدخال اليد في الثوب ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ والسلك هو إدخال الشيء في الشيء. أي: وأدخل يدك في فتحت ثوبك. وبحسب ما مضى في سورة النمل يكون بمعنى: اجمع يدك اليمنى يا موسى إلى عضدك الأيسر، فتجعلها تحته عند الإبط، فتلصقها به، أي تحت العضد، فيكون الكف تحت العضد المقابل، لأن الضم يعني الجمع مع الإلصاق، والجناح من الإنسان هما جانباه.

ثم أوضح تبارك وتعالى العلة والنتيجة من هذا الصنيع ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ فإذا أخرجت يدك من المكان الذي أمرتُك بوضعها فيه، فإن يدك تخرج مُتلألئة نوراً ساطعاً، أبيضاً من غير أذى ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي من غير شيء يشينك، وفي هذا احتراز يفيد التطمين. من أن خروجها بيضاء لا يعني الأذى كالبرص ونحوه، لكنه بياض يبهر الناظرين نوره. فسبحان الله العظيم في قدرته وآياته الجلية الواضحة العظيمة.

ثم يأمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام بما يزيل خوفه ورعبه ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ أي: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك ﴿ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ أي: من الخوف. فعند فعلك ذلك يزول عنك الخوف، فهي معالجة حال ما يصيبه الخوف. فأرشده تبارك وتعالى على ما يعينه على التجلد وضبط النفس تجاه ما يهوله من أمر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اضمم يدك إلى صدرك من الخوف، ولا خوف عليك. وقال مجاهد: كل من فَزِعَ فَضَمَّ جناحه إليه ذهب عنه الفزع[1] وهي نعمة عظيمة. ثم يُوجه الله تبارك وتعالى رسوله موسى عليه الصلاة والسلام إلى الآيتين العظيمتين ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ﴾ فاسم الإشارة ﴿ فَذَٰنِكَ ﴾ يعود إلى آية العصا واليد عند خروجها بيضاء من غير سوء. فإنها ﴿ بُرْهَٰنَانِ ﴾ دليلان وحجتان واضحتان ملجمتان ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ وليست من مصدر آخر. بما يفيد عظمتها وقوتها، فالذي يأتي من العظيم عظيم، وأنه لا يكابر عليها إلا جاحد وظالم لنفسه. وأنك مُرسَلٌ بها إلى فرعون وأعوانه ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ﴾ لتقوم عليهم الحجة، وفي ذكر فرعون وملئه، وهم سادتهم وكبراءهم ما يفيد التخصيص، لأنهم المؤثرون في غيرهم، فالناس تبعاً لهم، ولأنهم أهل العناد والتكبر ﴿ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ فوصف سبحانه وتعالى فرعون، وملئه بالفسق ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ أي: خارجين عن الحق، فالفسوق هو الخروج والانفصال عن الأصل الذي هو الحق والصواب.

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٩٩)

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

بعد أن كلم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام، وزوده بآية العصا، وآية بياض اليد من غير سوء، وأمره عَزَّ وجل بأن يذهب إلى فرعون وقومه بدين وشريعة الله سبحانه وتعالى، فهنا يعرض موسى على ربه تبارك وتعالى ما يخاف منه، وهو أن يقتلوه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ قال موسى عليه السلام: يا رب إني قتلت منهم نفساً، وهو القبطي الذي وكزه موسى فقضى عليه، وأخاف أن يقتلوني بسبب هذه الفعلة. بما يعني ويفيد أعِنّي واحفظني من أن يكون منهم ذلك.

ثم أشار إلى أخيه هارون، بما تميز به عنه ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ فمن مصداقية موسى عليه السلام، ونصحه فيما يراه من نفسه وأخيه هارون أن ذكر لربه تبارك وتعالى قدرات ومميزات أخيه هارون ليكون معه عوناً ونصيرا. وهذا الطلب والإفصاح عن أخيه دليل على أمانته، ودليل على نصحه، وأنه يعترف ما لغيره من مميزات، ولا يغمط غيره حقه. وهي من دلائل أنه الرجل الجدير بهذا الاصطفاء من الله تعالى، كما يفيد ذلك أن بعض الموانع أو بعض القصور، قد يقابله تفوق في جوانب أخرى، جديرة بالاصطفاء. وفيه الاستعانة بالغير، وتقريب الأقرب إذا كان أكمل في جوانب عن غيره.

فبدأ موسى عليه السلام أولاً: ببيان منزلة هارون منه ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ ﴾ فهارون أخي، ثم أوضح ما تميز به عنه ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ فهو أفضل مني في فصاحة الكلام، فاللسان يُعَبَّر به عن الفصاحة والكلام، وما يخرج من النطق والمنطوق والتفوه به. ووصف المفارقة بينه وبين أخيه في الفصاحة بأسلوب المفاضلة ﴿ أَفْصَحُ ﴾ بما يفيد أن قدرته عليه الصلاة والسلام على الإفصاح موجودة، غير أن أخاه هارون أكثر فصاحة، لأنه كان لديه عليه الصلاة والسلام عقدة عند النطق، تظهر أثناء حديثه، وهي عقدة

كائنة في لسان موسى عليه السلام كما ورد في سورة طه ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴾ بما يفيد أن في لسانه علة مانعة أو عائقة من كمال الإفصاح، وليست مانعة من الإفصاح، بدليل المفاضلة في الإفصاح ﴿ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا ﴾ ثم تدرج ثالثاً: بطلب من ربه تبارك وتعالى أن يكون هارون مسانداً له ﴿ فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا ﴾ أي: أستعين به. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: الردء: اسم ما يُستعان به[1] وهو العون والمعين والمساند ﴿ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ فيعينني بتصديقه لي، فيكون رداء مصدقاً لي. فأتقوى ويقوى الحقُ به معي. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: معيناً ووزيراً ومقوياً لأمري، يصدقني فيما أقوله وأُخبِر به عن الله عَزَّ وجل، لأن خبر اثنين أنجع في النفوس من خبر واحد[2] مما يفيد أن الاستعانة بالمتمكن دلالة الحكمة، وأنها لا تُنقِص من قدر المستعين به شيئاً، بل تزيد من قدر حكمته وسداد رأيه، وكريم أخلاقه.

ثم تدرج موسى عليه السلام إلى ذكر علة وسبب الاستعانة بأخيه هارون فيما هو متعلق بفرعون وملئه ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ فقد أفصح موسى عليه السلام عما قد يكون منهم من العناد والتكبر، بما يدل على قوة علمه بهم. وفي جملة ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ﴾ ما يفيد طاعته وعدم امتناعه عما أمره ربه سبحانه وتعالى به، ولكن هو بيان لحال توقعه منهم، بعدم استجابتهم وتكذيبهم له، فإن كذبوا فما هو الحل؟ وذلك بناء على معرفته بهم؛ وبظلمهم واستكبارهم، وحاجته لمواجهة ما هم عليه عند تكذيبهم له، وما قد يكون منهم من بأس، وما يتوقعه منهم من السوء والتكذيب ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ ويُستفَاد من ذلك أن على الْمُكَلَّف بأمر أن يوضح لمن كلفه بما يتوقعه بناء على معرفته الحقيقية للأمر، وأن على المتعلم أن يُفصح بالعوائق المحتملة العالقة في ذهنه. فأورد موسى عليه السلام ذلك بناء على معرفته بهم، ومعايشته لهؤلاء الظالمين. مما يدل على حرصه على أن يستجيبوا له، وأن يكون وفياً في تحقق ما أمره الله تعالى به، طاعة واستجابة لتكليف الله تعالى له بالرسالة.

فاستجاب الله تعالى لطلب موسى عليه السلام، وأكرمه بأخيه هارون وزيراً ورسولاً وسنداً معه ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ سنقويك ونُعز جانبك ونعينك بأخيك هارون ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٤٠٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٠٠)

فشد العضد كناية عن القوة المساندة. والعضد من المرفق إلى الكتف. وفي هذ ما يفيد أن الله تعالى سيمنح هارون من القوة ما يتمكن به من شد أزر أخيه موسى عليهما السلام. وأضاف تبارك وتعالى لهما قوة خاصة، وجبارة لهما، وهي: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ قوة قاهرة ممنوحة لكم من الله تعالى ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ فإن هذا السلطان الإلهي الرباني يمنعهم من الوصول إليكما بأي شر ينون به لكم. فإن لكم حصانة ومَنَعَةً من الله تبارك وتعالى، فأنْعِم بها من حصانة وقوة، فقد تجلت في دخول هارون وموسى على فرعون وملئه، دون أن يمسهم بأذى في جميع المواقف. بل كان يخاطبه موسى بخطاب الواثق الشجاع الذي لا يهاب فيه سطوة على نفسه ولا على أخيه من فرعون، كما سيأتي، وكما هو واضح في جميع قصص موسى مع فرعون، التي وردت في القرآن الكريم. ثم يخبر الله تعالى تأكيداً بما هم عليه من عظيم ما يحملونه معهم، فإنكما تذهبان إليه ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فإنكما تحملنا حججنا التي لا يمكن بها أن يصلوا إليكم بما تكرهون أبداً. مما يفيد أن من يحمل آيات الله تعالى صدقاً وإخلاصاً، وتبليغاً، فلن يصل إليه ما يكره بسلطان الله تعالى.

ثم يخبر جَلَّ في علاه بغلبة ونصرة موسى وهارون ومن تبعهما ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ فأنتما يا موسى وهارون وجميع من آمن معكم، المتبعين لما جئتهم به غالبون. فإنكم جميعاً غالبون عليهم. بما يبشر بالنصر لهما وللمؤمنين، والهزيمة لكل من عادهم. مما يعطي بياناً ودلالة بأن رسالة الله تعالى وحاملوها قوة ونصر ومنعة لمن يحملها بصدق وأمانة، من غير رياء ولا سمعة، وأن لها ولمن أخذ بها بصدق وإخلاص قوة وسلطاناً من الله تعالى، وأن الغلبة والفوز لآياته عَزَّ وجل على كل من يعاديها، ويُعادي أهلها.

ومن غزارة البيان، وبلاغة نظم آيات القرآن التي أظهرت وبينت أنه كتاب معجز حتى في سياق نظمه، أن موقع ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ من الآية الكريمة قد منحها نثر العديد من الفوائد، والتي تجتمع جميعها على التضافر والتناسق والتكامل. فتتغير دلالتها بحسب انضمامها لما قبلها، أو لِمَا بعدها، أو بالتقديم والتأخير. ففي وصلها بما قبلها ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكم آيات الله[1] وفي وصلها بما بعدها عن الذي قبلها يكون المعنى كما قال ابن جرير رحمه الله تعالى: فلا يصل إليكما فرعون ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ فالباء في قوله تعالى ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ صلة ﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ ومعنى الكلام: أنتما ومن اتبعكما الغالبون فرعون

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٠٠)

وملأه ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي: بحجتنا وسلطاننا الذي نجعله لكما[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: أي تمتنعان منهم ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ فيجوز أن يوقف على ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا ﴾ ويكون في الكلام تقديم وتأخير. وقيل: التقدير ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾[٢] وخلاصتها كما صنف ابن الجوزي الأقوال فيها إلى ثلاثة أقوال: الأول: تمتنعان منهما بآياتنا وحُجَجنا، فلا يصلون إليكما. والثاني: أنه متعلق بما بعده، فالمعنى: بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون، أي: تغلبون بآياتنا. والثالث: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، تقديره: ونجعل لكما سلطاناً بآياتنا فلا يصلون إليكما[٣] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى في دلالاتها خمسة أنواع: أي: اذهبا بآياتنا. أو نجعل لكما سلطانا، أي: نسلطكما بآياتنا. أو بلا يصلون، أي: تمتنعون منهم بآياتنا. أو هو بيان للغالبون. ويجوز أن يكون قسماً، جوابه: لا يصلون مقدماً إليكما[٤] فهي دلالات إعجاز.

وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى أنها تعطي خمس دلالات: وهي: ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ يجوز أن يكون ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ متعلقاً بمحذوف دل عليه قوله: ﴿ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ ويجوز أن يتعلق ب﴿ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنًا ﴾ أي: سلطاناً عليهم ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ حتى تكون رهبتهم منكما آية من آياتنا. ويجوز أن يتعلق ب﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا ﴾ أي: يُصرفون عن أذاكم بآيات منا. ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ أي: تغلبوهم وتقهرونهم بآياتنا التي نؤيدكما بها. ويجوز أن يكون الباء حرف قسم ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ تأكيداً لهما بأنهما الغالبون، وتثبيتاً لقلوبهما. وقال ابن عاشور عن فوائد ذلك أيضاً: وعلى الوجوه كلها فالآيات تشمل خوارق العادات المشاهدة، مثل الآيات التسع، وتشمل المعجزات الخفية، كصرف قوم فرعون عن الإقدام على أذاهما مع ما لديهم من القوة، وما هم عليه من العداوة، بحيث لولا الصَّرَفة من الله تعالى لأهلكوا موسى وأخاه[٥] فهذا التنوع في الدلالات بسبب موقع ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ التي أعطت هذا الزخم من

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥٣/١٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٠/١٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩٩/٦)

(٤) الزمخشري، الكشاف (٤٠٧/٣)

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٨٢/٨)

الدلالات، التي تبين الإعجاز البياني في القرآن الكريم، الذي تمتلئ الآيات منه بغزارة معطياتها. وجميعها صحيحة تحتملها الآية الكريمة، مع تنوع وتعدد وكثرة الفوائد.

ومحل العبرة من هذا الجزء من القصة أن الرسالة فيض من الله تعالى على من اصطفاه من عباده. وأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كرسالة موسى جاءته فجأة، فَنُودي محمد في غار جبل حراء، كما نُودي موسى في جانب جبل الطور، وأنه اعتراه من الخوف مثلما اعترى موسى، وأن الله تعالى ثبته كما ثبت موسى، وأن الله تعالى يكفيه أعداءه كما كفى موسى أعداءه [1] فهناك تشابه يؤكد لقريش ولجميع الناس أن الاصطفاء والإيحاء من الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم مشابه لموسى عليه الصلاة والسلام. فأين ما تمتنعون به عن التصديق؟ ففيه الإثبات لنبوته عليه الصلاة والسلام بالمشابهة.

ثم طوى السياق الكريم ما دار بين موسى عليه السلام وفرعون ومن معه من الملأ لعدم تعلق العبرة به في هذا البيان، والاكتفاء عنه بما تم إيضاحه في سور القرآن الأخرى. فأوضح السياق الكريم أنه بعد أن عرض موسى عليه السلام على فرعون آيات الله تعالى البينات كان رد فرعون هو رميه له بالسحر ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فلما واجه موسى وهارون عليهما السلام فرعون بحقائق الدين، وحقيقة رسالتهم من ربهم لفرعون وقومه بالحجج والبراهين الواضحات، حيث قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي: التي بانت وظهرت تلك الحجج بكمال الوضوح أنها من عند الله تعالى، ولا يمكن أن تكون من مخلوق أبداً، فقد صدها فرعون وأعوانه، ونعتوها بالسحر ﴿ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ فالذي أتيت به من الآيات، هو نوع من السحر، فإنه ﴿ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ سحر مختلق ومخترع، مصنوع مُفتعل.

وكذلك نعتوا الآيات ودعوته لهم بتوحيد الله تعالى وعبادته بأنها أمر جديد لا سابق له ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فالذي تدعونا إليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ما رأينا ولا سمعنا بأحد من آبائنا كان على هذا الدين الذي تقول به. فاحتجوا بأنه شيء لا أساس لهم بمعرفته. فقياسهم على الباطل بالباطل هو باطل، وذلك بهروبهم عن دلائل البرهان المبين من الآيات الباهرات. بما يفيد إعراضهم عن الحق وأدلته وحججه، ورغبتهم في البقاء على ما هم عليه من الباطل. وعلة ذلك هو التكبر على موسى عليه

---

(١) المرجع السابق (٥٨٢/٨)

الصلاة والسلام، لئلا يظهر شأنه، ويخمد ملك فرعون. مما يفيد أن الكبر والاستعلاء ومحبة الدنيا، وتقديمها على الآخرة يجعل من صاحبها ومحبها يخترع في تفسير الحق على غير وجه الصحيح، بما يجعله يدفعه ويصده.

ومن جميل البيان ودقائق سياقه إظهار السرعة والاستعجال من فرعون وملئه بكتمان ما جاءهم به موسى عليه السلام من الحق، ويقطعون ببطلانه، فكلمة ﴿فَلَمَّا﴾ تفيد سرعة اتخاذ قرار التكذيب من فرعون وملئه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ فمجرد أن جاءهم موسى بالبينات التي هي من الخوارق التي أظهرها الله تعالى ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فَإن تَصَدُّر ﴿فَلَمَّا﴾ لجوابهم ما يبين ويُظهر سرعة الصد بالرد والتكذيب، والنعت له بالسحر، وأن ليس لآبائهم معرفة به.

فيرد عليه موسى عليه السلام بأن الله تعالى هو الأعلم بالمحق الذي جاء بالحق من عنده عَزَّ وجل، والذي له العاقبة المحمودة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فأرجع موسى عليه السلام العلم بالْمُحِق من الكاذب إلى علم الله تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ فإن الله تعالى هو الأعلم بالذي معه الهدى من ربه تبارك وتعالى، بما يفيد أنت تعلم الحق الذي جئتك به، وأنا أعلمه، والله تعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ مني ومنك، وأعلم بي وبك، وأعلم بالذي جاء بالهدى رسولاً من عنده. لأن كلمة ﴿أَعْلَمُ﴾ تفيد المبالغة في علم الله تعال، ولا تنفي علم الغير، بل تثبت علم الداعي الرسول موسى عليه السلام، وعلم المدعو، وهو فرعون وملئه، وتفيد المبالغة في علم الله تعالى وعظمة إحاطته عَزَّ وجل بالجميع. وبهذا أحاله إلى ما تكنه نفسه، المخالفة لِمَا يَظْهَر منه من التكذيب، وإلى حقيقة مشاعره الداخلية التي يوقن بها أنها آيات باهرات من عند الله تعالى. ولكن قد استولى عليه الكبر.

ثم دفعه للحذر، من العاقبة والجزاء ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ فربي أعلم بالذي تكون له العاقبة الحسنة في الدار. وهنا لم يحدد أي الدارين. لتشمل العاقبة في دار الدنيا وفي الدَّار الآخرة. ثم عززها بثالثة أخرى، وهي تقرير انتفاء الفوز والفلاح عن كل ظالم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فلن يتحقق للظالم أن يفلح وأن يفوز أبداً، فإنه أمر مقطوع به من عند الله تعالى،

وفي ذلك تنبيه وتحذير له من مغبة أن يظلم نفسه، ويظلم الحق من ربه، ويظلم رسوله بالتكذيب، ويظلم آيات الله تعالى بأنها نوع من السحر. فهي موعظة لكل أحد من الناس، ومنفرة ومحذرة من الظلم، والتمادي فيه، ومبينة لشأن الظالم بأن الخسارة لاحقة به لا محالة عن ذلك، ولا وقاية له عنها.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وينتقل السياق الكريم إلى الإخبار عن جرأة فرعون على محاربة الحق، وإنكاره، ووصفه لنفسه بأفظع أنواع الكذب والطغيان والفجور ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فيقابل فرعون تواضع موسى عليه السلام في بيانه للحق بالاستعلاء المملوء بالفجور وكمال الطغيان، فهما أسلوبان متضادان بين الرسول وبين فرعون، وبين ما يدعو له الرسول وبين ما يدعو إليه فرعون.

فوجَّه فرعون خطابه للملأ من حوله ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ ﴾ فعدل عن مخاطبة موسى عليه السلام إلى مخاطبة ﴿ ٱلْمَلَأُ ﴾ وهم أشراف وأعيان قومه الذين كانوا في مجلسه، وخاطبهم بصيغة الاستنهاض والانتباه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ ﴾ بصيغة النداء التي تفيد شد الانتباه إلى قول مهم لهم ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ فنفى عن نفسه العلم القطعي من أن يكون لهم إله غيره. فحصر الألوهية في نفسه لهم، وبأسلوب نفي الجهل وإثبات العلم في هذا لنفسه. وبالتالي لا يوجد شيء مجهول لا أعلمه. ليقطع عنهم التفكير في الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام نهائياً وقطعياً، ويُبطل لهم به حجج موسى عليه السلام في توحيد ووحدانية الله تعالى. ومما يفيد أنه لا معبود لهم غيره، والذي يجب عليهم أن يتوجهوا إليه بجميع عباداتهم، فيصرفونها له وحده، وأن قوله هو الحق القطعي الذي لا يُرد ولا يُناقش فيه أبداً، ولا يوجد احتمال الصواب عند غيره منهم. فيكون بذلك قد استعبدهم إلى درجة كمال الطاعة له. ليفيد استعلائه وكبريائه وبهتانه، وما بلغه

من طغيان وغرور إلى درجة ادّعاء الألوهية، ونفي ما عداه أن يكون إلهاً، بل ونكرانه لله تعالى الذي خلق كل شيء. فهذا تجرؤ المخلوق على خالقه، وادعائه بما هو لله تعالى، بأنه هو الرب ولا رب سواه. غاية الكفر والطغيان والبهتان، والاستعباد لقومه.

ثم يزداد فرعون في التعالي والبطر، من أجل إشغال أذهان من عنده بأمر لا يمكنه أن يقوم به، بما يدل على غسله لعقول من عنده، فيقول ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾ فيطلب من وزيره هامان أن يجمع الطين، ويُوقد ويشعل تحته النار، بهدف إشغال الناس ببناء الصرح عن دعوة موسى عليه السلام ﴿ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا ﴾ فاجعل من هذا الطين بناء مرتفعاً ﴿ صَرْحًا ﴾ أي: شاهقاً في ارتفاعه وعلوه، ثم يذكر الهدف من بناء هذا الصرح ﴿ لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ لعلي أرى إله موسى من فوق هذا الصرح. وهذا يدل على ثلاثة أمور: الأول: جسارة قلبه واستوائه على الكفر، وامتلاؤه بالاستعلاء والتعاظم. والأمر الثاني: إشغال الناس زمن بناء صرحه عن دعوة موسى عليه السلام. والأمر الثالث: ضعف رؤيته وتفكيره ومن معه على ما عَلِق في ذهنه وتفكيره، بأنه يستطيع بلوغ ارتفاع السماء وعلوها الذي قال الله تعالى عنه في سورة السجدة ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ﴾ وقال تعالى في سورة المعارج ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ ﴾ وقد ورد البيان بأسلوب التقليل ﴿ لَّعَلِّيٓ ﴾ احتمال غير متوقع بأن هناك إله كما يزعم موسى، ولكن حتى أبين لكم كَذِب موسى ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ وإني أعتقد قطعاً وجزماً أنه واحد من المكذبين، بما يفيد أن موسى يفتري علينا بأن هناك إله غيري، وأنا لا أعلم بذلك. فهو من باب التحقير والاستهزاء والسخرية. فاستخف عقول الكبراء، فكيف بمن هم دونهم من قومه؟ فقبل الملأ هذا الاستخفاف بعقولهم، واستسلموا له. مما يفيد أن الإنسان إذا قبل أدنى الكذب، ولم يُمعن فيه ويُحَكِّم عقله، فإنه يقبل بما هو أعلى، ثم يتمادى في تصديق البهتان، حتى يستسلم لكل بهتان، ويصدق كل افتراء. وهذا ما يحصل عند الجهلة، والمنحرفين في عقائدهم، من أهل البدع والشبهات والشهوات.

فباستحسانه لِمَا هو عليه من الباطل جعل فرعون يستعلي هو وجنوده في أرض مصر على عباد الله تعالى، وعلى الحق، وعلى ما جاء به موسى عليه السلام ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ وتجبر وطغى وتطاول فرعون وجنوده في الأرض بالاستكبار، الذي هو: التعالي والتطاول على الغير بالباطل. وبالتالي تعاظموا في الأرض بأنفسهم على الإيمان بموسى رسولاً من عند الله تعالى. وورد موقع التعالي أنه في الأرض، وعلى وجه التعميم، لتشمل أرض مصر

وكل موطئ يحل فيه. وليشمل بهذا الوصف أن استعلاء فرعون وجنوده شامل لكل من في الأرض، من الإنس والدواب وغيرها، وأما نوع استكبارهم فإنه ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالتجاهل والاحتقار والاستخفاف. فليس من وراء ذلك شيء من إحقاق الحق، بل إنه لا يحمل للجميع شيئاً من الحقوق والأخلاق والرحمة. ولذلك عذب بني إسرائيل وساموهم سوء العذاب، بقتل ابنائهم، واستحياء نسائهم، وذلك باستباحتهم، واستعبادهم في الأعمال الشاقة. كما أن في وصف فرعون وجنوده بالاستكبار ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ ما يفيد أشد أنواع التطاول حتى بلغ به التكذيب أن استنكر وكذب بوجود الله عَزَّ وجل.

ومن دوافع ذلك الاستكبار وقهر الآخرين والتعالي عليهم، هو عدم إيمانهم باليوم الآخر، وما يتبعه من حساب وعذاب ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ فأنكروا البعث والحساب والجزاء، واعتقدوا في نفوسهم بأنه لا حياة بعد الموت، وليس هناك رب يرجعون إليه، فيحاسبهم على تصرفاتهم، ويجازيهم على الخير خيراً، وعلى الشر شراً. مما يبين قوة وأثر نعمة الإيمان بالرجوع إلى الله تعالى، فإنه ضابط للسلوك وللتصرفات، ومحقق الخير للإنسان في الآخرة.

ثم يخبر الله تعالى بتدميره لفرعون وجنوده بأسوأ أنواع العذاب وأنكله، وهو الغرق في البحر ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فتولينا أمر فرعون وجنوده، فطرحناهم في البحر غرقاً. وقد ورد البيان بالأخذ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ والأخذ في هذا السياق والموقف دليل على شدة الانتقام المصاحب للاستخفاف بهم، وبما كان منهم. وبما يفيد شدة الانتقام الممتلئ بالاستحقار لهم، والتقليل من شأنهم. فإنه عندما استمر طغيانهم وعنادهم وبغيهم ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ فطرحناهم بهوان وإذلال لهم ﴿فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي: في البحر.

والنبذ هو: الطرح والرمي ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ أي: جعلناهم في البحر بطريقة الرمي والطرح لهم بحقارة وتفاهة لهم، فلم تكن لهم قيمة ولا وزن عند ربهم تبارك وتعالى. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أنه من الكلام الفخم الذي دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه عَزَّ وجل. استحقاراً لهم، واستقلالاً لعددهم[١] وفي هذا بيان لشأن الله تعالى وعزته وعظمته، وحقارة من لا يطيعه ويمتثل أمره وهيبته عَزَّ وجل.

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٤١٢)

ثم حث تبارك وتعالى على التأمل والتدبر في شأنهم ومصيرهم ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فتأمل أيها الْمُخَاطَب كيف سهولة أخذهم بالهلاك، كونهم ظالمين. بما يبين أن عاقبة الظالمين هي الهلاك، وأنهم مُحتقرون عند ربهم عَزَّ وجل، فلا قيمة ولا شأن ولا وزن لهم. وكلمة ﴿فَٱنظُرۡ﴾ تبين أهمية التأمل والتدبر، والوقوف على ما يحقق الإيمان. وهي تفيد نظر البصر بالمشاهدة والمعاينة، وكذلك نظر البصيرة بالتأمل والتفكر والتدبر. مما يبين فضل الله تعالى في تمكين الإنسان من الحواس التي توصله إلى الحق، ومعرفته، وإدراكه إدراكاً حسياً وقلبياً بعد توفيق الله تعالى. بل جاء التوجيه بالنظر مقترناً بأداة الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾ فقال تعالى ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾ والتي أفادت التنبيه، وتوجيه الذهن للاعتبار، والتأمل والتفكر في حقارة الظالمين عند الله تعالى، وأن زينة الدنيا قد أغرتهم، وأخذت بهم إلى الاستعلاء في الأرض، حتى وصل بهم الاستعلاء على المرسلين لهم من الله تعالى، والاستعلاء والتطاول على ربهم عَزَّ وجل. بل إن فرعون نفى أن يكون هناك رب غيره، فادَّعَى الألوهية والربوبية. بما يفيد التدرج في التعالي، ومصادرة الحق وعدم الاعتراف به. وخطورة التقليد، والتتابع في الباطل، والذي يجر بعضه بعضاً، حتى يصل به العبد إلى أدنى درجات التفكير والانحطاط.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾ أنها تَلْفِت الانتباه إلى تقليب البصر والتأمل، وتقليب الفكر في الشيء، لتنكشف الحقائق له، وليكتشف ما غاب عنه من الحق، وليبصر الحقائق المذهلة، التي تبين للناظر الحق ومساراته الواضحة الساطعة البينة، وتوضح له ما في الحق من الْحُسْن والخير. كما يدل على نعمة نظر البصر والبصيرة، وأنها نعمة عظيمة، إذ يتفقه بها الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأن التفكير والتأمل وسيلة من وسائل المعرفة في اكتشاف الحقائق، والصواب من الخطأ، والحق من الباطل.

ثم يبين الله تعالى حال فرعون وقومه، وتصنيفهم بين الناس ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ فكان جزاؤهم من جنس عملهم، فقد جعل الله تعالى فرعون وجنوده زعماء في الدعوة إلى طريق النار ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً﴾ أي صيرناهم قادة وقدوات ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يدعون غيرهم إلى أن يسلكوا مسلكهم من الغواية التي تُوصِلُ وتطرح صاحبها في النار. فكان عقابهم في الدنيا من جنس ما كانوا يعملون. فلما كانوا أئمة في الكفر والضلال، ولم يستجيبوا لداعي الله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فيقتدي بهم من أراد النار، بمعاصيه، واتباع نهج فرعون

وجنوده. وأما يوم القيامة فإن حالهم هو ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ فلا يجدون من يشفع لهم، ولا مُنقذ يساعدهم بالخروج من العذاب. فيفقدون الناصر، بينما كانوا في الدنيا يتناصرون بالباطل وعلى الفساد، فقد تلاشت تلك المناصرة، فلم تعُد موجودة بينهم. فكما أن هناك أئمة في الطاعة، فإن هناك أئمة في الكفر والضلال. مما يفيد التحذير من غواية أئمة الكفر والضلال، ووجوب اتباع أئمة الهدى والحق والسعادة.

ثم يخبر الله تعالى بأنه زيادة في عقوبتهم وخزيهم في الدنيا والآخرة، فقد أتبعهم لعنة في الدنيا، وقبحاً في الآخرة ﴿ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ فبما أهلكناهم في الدنيا بالغرق، فقد أتبعناهم أيضاً في الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ طرداً وإبعاداً عن رحمتنا، فلن ينالوا شيئاً منها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: شرع الله عَزَّ وجل لعنتهم، ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: أمرنا العباد بلعنهم. وقيل: أي ألزمناهم اللعن، أي: البعد عن الخير[٢] فهو دلالة على المبالغة فيما يجدون من الخزي والسوء في الدنيا، حتى من قبح السيرة بين الناس أنهم محل ضرب الأمثال في الطغيان ممن تكبر وتجبر، وفيمن حارب دين الله تعالى، فهم أئمة في أنواع الشرور والبغي والعناد والاستكبار والطغيان. مما يفيد الحذر من التمادي في الباطل، حتى لا يصبح إماماً وقدوة فيه، فيتعاظم إثمه وجزاءه.

ثم أخبر تبارك وتعالى عن حالهم في الآخرة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ وإضافة على ما لهم من الخزي والعذاب فإنهم ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ والمقبوح، هو المطرود والمبعد. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: من الْمُبعَدين الملعونين. قال أبو زيد: يقال: قبح الله فلاناً، أي: أبعده من كل خير[٣] قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: من المهلكين الممقوتين، قاله ابن كيسان، وأبو عبيدة. وقال ابن عباس: المشوَّهين الخلقة، بسواد الوجوه، وزُرقة العيون. وقيل: من المبعدين[٤] فهو دلالة المبالغة فيما يجدون من الخزي والسوء يوم القيامة.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠١/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩١/١٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠١/٦)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩١/١٣)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى ما امتن الله تعالى به على بني إسرائيل من إتيان الكتاب لموسى عليه السلام بعد أن أهلك عَزَّ وجل الأمم السابقة التي كفرت بأنبيائها ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يخبر الله تعالى بما امتن به على رسوله الكريم موسى عليه السلام من إنزال التوراة عليه ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فقد أعطينا موسى التوراة، وهذا امتنان عظيم على موسى عليه السلام، باصطفائه رسولاً. وهو كذلك امتنان على بني إسرائيل بما جاءهم من الحق على رسولهم موسى عليه السلام، والتي تستوجب منهم الشكر والطاعة والامتثال، خاصة وأنها جاءت بعد هلاك القرون الأولى من الأمم السابقة ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ من بعد أن أهلك الله تعالى من سبقهم من الأمم التي كفرت بالمرسلين، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، ليتحقق بها أربعة أهداف وغايات سامية لأولئك الذين نزلت فيهم التوراة على نبيهم موسى عليه السلام.

فالغاية الأولى: ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ شريعة ومنهاجاً لبني إسرائيل وليبصروا بالتوراة الحق الذي ينفعهم، ويكشف لهم الغي والباطل الذي يجب البعد عنه، فهي نور يكشف لهم الحق، ويتبدد به ظلام الجهل. وفي نعتها بالبصائر ما يفيد قوة بيانها، فهي بمنزلة الضياء لبني إسرائيل، مما يدل على قوة الحاجة الماسة إليها من بعد هلاك تلك الأمم. وأنها بمنزلة العيون في كشفها وتجليتها للحق من الباطل. كما أنها وردت بصيغة الجمع ﴿ بَصَآئِرَ ﴾ لتفيد كثرة ما فيها من التبصير لمسارات الحق، وكشف الضلال والباطل. بل ومن قوة ما فيها

أن عمم المستفيدين منها، للتفخيم والتبجيل ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ فالناس هم بنو إسرائيل الذين أُرسِل إليهم موسى عليه الصلاة والسلام. بما يفيد قوة صلاحها لكل أحد من الناس ذلك الوقت، وهم بنو إسرائيل المعنيين بها، ومن خالطهم، ومن علم وعمل بها ذلك الوقت، لأنها أنزلت فيهم. وأما اليوم فإنها منسوخة بكتاب الله تعالى القرآن العظيم، إضافة إلى ما لحقها من التحريف.

وأما الغاية الثانية: ﴿ وَهُدًى ﴾ فإنها تأخذ مَن عمل بها إلى الحق، وتأخذه من الضلالة إلى الاهتداء. فتهديه وتأخذ بيده إلى الخير والصواب. والغاية الثالثة: ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ يتحقق لمن اتبعها رحمة الله تعالى به، لأنها أخذته إلى الأعمال الصالحة التي توصله لسعادة الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة. وأما الغاية الرابعة: ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: لعل المخاطبون بها من الناس يهتدون بسببها، ويتذكرون هذه النعمة الجليلة، فيقومون بما فيها من الحق والهدى والرحمة، ويشكرون ربهم عليها، ويلتزمونها.

وبعد أن أوضح تبارك وتعالى امتنانه على موسى وعلى قومه بالتوراة، ينتقل البيان إلى الشروع في بيان برهان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونزول القرآن عليه، ليكون ذلك بلاغاً وإفهاماً لمن أنزل الله تعالى فيهم القرآن أن يتدبروا إنعام الله تعالى عليهم بما أنزله من القرآن على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بمثل ما أنعم على من كان قبلهم، وأن رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن له علم في ذلك الذي تلاه عليكم عن موسى وفرعون وبني إسرائيل. وابتدأ البيان بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ فما كنت يا أيها الرسول محمد حاضراً بالجانب الغربي من جبل الطور، ولا مطلعاً في شأن وأمر تكليفنا لموسى بما كلفناه من الرسالة، وأنزلنا عليه التوراة ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ ﴾ لم تكن ذلك الوقت حاضراً وموجوداً بالجانب الغربي من جبل الطور، بما يفيد نفي العلم له بذلك صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ حين قضينا لموسى أمر الرسالة لبني إسرائيل، وإنزال التوراة عليه، لتكون بصائر وهداية ورحمة لقومه. وأيضاً ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ ولم تشهد ذلك لتخبر الناس به. وهذا تأكيد لنفي الوجود، ونفي المعاينة والمشاهدة، والعلم بكل ما في الأمر من شأن موسى وفرعون وبني إسرائيل. بما ينفي عن الرسول صلى الله عليه وسلم علمه بكيفية نزول الوحي، وبأخبار من سبق من الأمم، ومضمون محتوى التوراة. وبما يفيد نفي أي شبهة يَدَّعِيها من يُكَذِّب برسالته صلى الله عليه وسلم. وبما يفيد أن ما يعرفه ويعلمه اليوم هو حادث له، غير مسبوق بعلم من ذلك.

وفي هذا إثبات بما هو معلوم عند كل أحد أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، لم يكن أصلاً قد وُلِد حتى يكون له العلم بذلك، ويشهد حال ما حصل لموسى عليه السلام من الوحي. ولم يكن يعلم عن قصص لأولين وعن أنبائهم، كما هو الحال في قومه صلى الله عليه وسلم من الجهل بذلك. فبهذه الحجة يكون قد دحر وأبطل كل قول بأن له علم بذلك. وبالتالي فإن الإخبار بقصة موسى بهذه الدقة لا يمكن إلا أن تكون وحياً من الله تعالى الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام. كما أن في ذلك حجة على بني إسرائيل بما يجب عليهم من الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يخبرهم بدقائق ما كان من أحداث قصة موسى عليه الصلاة والسلام.

ثم يكرر الله تعالى عليهم الحجة بِمَثَلٍ آخر، ليبطل الله تبارك وتعالى به استنكار وتعجب المشركين من أن يكون محمداً رسولاً من الله تعالى، فكما أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن بالجانب الغربي من الطور حين أوحينا إلى موسى وأنزلنا التوراة عليه، فهو كذلك لم يكن يوماً في أهل مدين، فيعرف ما كان من شأن موسى في مدين، ولا ما كان من أهل مدين مع نبيهم شعيب. فيخبركم بخبرهم، فإن الإخبار إذاً هو وحي من الله تعالى إليه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴾ ولكنا أنشأنا أمماً من بعد موسى عليه السلام، ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ ﴾ أي: فتطاول عليهم الأمد، والزمن، بتعاقب الوقت الطويل، فنسوا عهد الله تعالى وتركوه، فجاءت حاجة الناس لبعثته صلى الله عليه وسلم، فأوحينا ذلك البيان عن قصص بعض من سبق من الأمم، ومنهم موسى عليه السلام.

ثم يذكر تبارك وتعالى نفي علمه صلى الله عليه وسلم بمدين وأهلها ونبيها، ومجيء موسى عليه السلام إليها ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾ وما كنت ﴿ ثَاوِيٗا ﴾ أي: مقيماً في أهل مدين فعلمت وعرفت وتعلمت منهم ما كان من شأن موسى معهم، وشأنهم مع رسولهم شعيب، لتتلوا ذلك على الناس اليوم من آياتنا على المشركين. فتخبرهم بما نزل على موسى عليه السلام من الوحي، وما حصل له من أحداث في مَدْين، وكذلك ما حصل من أهل مدين مع نبيهم شعيب، وتفاصيل ما دار من أقوال وردود بينهم، وما نزل بهم من العذاب ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴾ ولكنا كنا مرسليك بالرسالة إلى الناس. فأوحينا ذلك إليك، فأرسلناك بوحينا، وعَلَّمنَاك بما لم تكن تعلمه أنت ولا قومك من قبل هذا، بأن خرج موسى من مصر إلى مدين، ثم خرج من مدين، فأوحينا إليه بالرسالة، وكذلك بما أوحينا إليك من أخبار أهل مدين، بأننا أرسلنا إليهم رسولاً، فلم تكن أنت هناك تسمع وتتعلم فتتلوا آياتنا اليوم عليهم، فلم يكن لك علم بذلك لولا أن جاءك الوحي من الله تعالى عنهم.

وأفادت ﴿وَلَٰكِنَّا﴾ توكيد نفي ما هو معلوم عند المخاطبين وعند كل أحد من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن في مدين يوما ما، ولا بجانب جبل الطور الأيمن، مع إفادة توكيد حصر علمه صلى الله عليه وسلم أنه كائن من الرسالة التي أرسله الله تعالى بها إلى الناس، وبالتالي فهو رسول من الله تعالى. كما أفادت ﴿كُنَّا﴾ إثبات أن الذي بعثه بالرسالة هو الله سبحانه وتعالى. وفي التنصيص على الرسالة بقوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ما يفيد إثبات رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعيينها وإظهارها في السياق بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فإن مَن كذبه فقد كفر.

ومن أسلوب سياق الآية وتراكيب جُمَلِهَا وكلماتها أن الآية الكريمة أعطت دلالات متوافقة ومتعاضدة، وبسياق واحد، وهذا من بلاغة البيان، حين يعطي عدداً من الدلالات، من غير حاجة إلى تكرار النص بأوجه مختلفة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أَخْبَرتَ عن نبيها شعيب، وما قال لقومه وما ردوا عليه ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك للناس رسولا[١] وهناك من جعل نفي الإقامة في مدين متعلق بمكوث وإقامة موسى عليه السلام، فذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي: مقيماً ﴿فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فَتَعْلَم خبر موسى وشعيب وابنتيه، فتتلو ذلك على أهل مكة، وأخبرناك خبر المتقدمين، ولولا ذلك ما علمته[٢] ودلالة الآية الكريمة تجمع المقصدين معاً، فتركيب الآية يحتمل هذا وهذا، وبالتالي فهو جمع الأمرين في نص كريم واحد، ليدل على براعة الإعجاز في نظم القرآن الكريم.

ثم يؤكد تبارك وتعالى أن ما قَصَّهُ من الأخبار عل رسوله صلى الله عليه وسلم دليل على نبوته، وأنه رسول الله تعال إلى الناس، إذ لم يكن واقفاً وشاهداً على تلك الأحداث التي دارت بين المرسلين وأقوامهم، ومنهم موسى عليه السلام ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فتضمنت الآية الكريمة مجموعة من الأدلة والمحاور التي تدحض شبهات المشركين. **فأولاً:** ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ فلم تكن أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بناحية وبجانب جبل الطور حينما نادينا موسى وكلمناه وكلفناه بالرسالة وأعطيناه التوراة، فعلمت بتفاصيل ذلك، فإن انتفاء علمك بذلك من أصل قصة الحدث دليل على أن علمك اليوم به هو وحي

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠٢/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٢/٦)

من ربك لك، وأنه حجة لك على نبوتك، وحجة على الناس أجمعين بأنك رسول الله إليهم. وأن هذا حجة داحضة لمن أنكر وكذب بك.

ومن دقائق بيان الآية، والآيات التي قبلها أنه ورد الإخبار هنا في هذه الآية الكريمة بصيغة النداء ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ وفي الآية ما قبل السابقة بصيغة القضاء، قال تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ وفي التي قبلها بصيغة الإيتاء، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فهذا التنوع في البيان، هو لتحقيق المقصد وإثباته من كل وجه، وبما يناسب الحال والمقصد. وكذلك أن السياق في هذه الآية لم يذكر موسى عليه السلام ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ بما يفيد أن البيان بلغ ذروته في الإعلام والإثبات، حتى أنه لم يَعُد لازماً من ذكر الاسم، فقد أصبح معروفاً ومتأكداً للمُخَاطَب. كما أن النداء أخص. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ثم أخبر هاهنا بصيغة أخرى، أخص من ذلك، وهو النداء(١) وللتخصيص ميزة عن غيره.

وثانياً: يخبر تبارك وتعالى بأن الغاية من بعثة نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم هي رحمته بعباده ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ فبعثتك أيها النبي صلى الله عليه وسلم هي رحمة مخصوصة من ربك للناس أجمعين. وتخصيص ورود الرحمة من الله تعالى ﴿ رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ما يفيد أن مراد الله تعالى بك وبرسالتك هو رحمة الناس بهذا الدين العظيم، وكذلك لإفادة التعظيم لهذه الرحمة، ولشأنها. كما يفيد البيان: أنك أيها النبي رحمة للناس، وبالتالي فإن الرسالة رحمة، والهدف والغاية منها الرحمة، والمرسل بها رحمة للعالمين. فحوى سياق النص الكريم جميع أوجه الرحمة من كل وجه، ليتحقق بذلك أن الله تعالى رحمن رحيم، ومن رحمته بالناس رسالته التي جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فمن أخذ بها رحم نفسه، ورحم غيره بتصرفاته وأعماله، وتخلق بأخلاق الرحمة في كل شأن، وأفضى به ذلك إلى رحمة الله تعالى، وأن من تركها فقد حاد عن الرحمة لنفسه، وفي تعامله مع غيره، وكان قدوة وأسوة لأضداد الرحمة، لينتهي به الأمر إلى العذاب.

وثالثاً: بيان ما يجب أن يقوم به الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ فمهمتك أيها النبي هو إنذار هؤلاء القوم المشركين بمكة وغيرهم من العرب، الذين لم يسبق أن جاءهم نذير من المرسلين قبلك. وهذا التخصيص بأهل مكة لتكون الانطلاقة منها للناس أجمعين. قال ابن

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠٣/٣)

جرير الطبري رحمه الله تعالى: ولكن أرسلناك بهذا الكتاب وهذا الدين لتنذر قوماً لم يأتهم من قبلك نذير، وهم العرب الذين بُعِث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] بما يفيد التدرج في الإبلاغ. ولذلك امتد إنذاره صلى الله عليه وسلم إلى خارج مكة والمدينة، ثم امتد في عهد الصحابة، وهكذا في بقية العصور، حتى شاع الإسلام في الأرض كلها.

خامساً: بيان الهدف والواجب الذي يجب على الناس أن يقوموا به: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون بإنذارك لهم، فيعرفوا خطأ ما هم عليه من الشرك، فيعودوا إلى رشدهم بطاعة الله تعالى، وتوحيده، وإفراده بالعبادة. والتذكر من قوله تعالى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يفيد التفكر، والاسترجاع للحق الذي فُطِر عليه الإنسان. بما يفيد أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يسترجع به الإنسان الحق، ويُبطل به الباطل.

ثم يخبر الله تعالى بأن في إرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم إقامة للحجة على من كفر وامتنع عن الإيمان والطاعة والاتباع، فينقطع عذرهم برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلولا أن ينزل عليهم ما يستحقون من العقاب بسبب ما اقترفوا من الكفر، فيقولون محتجين: لولا أرسلت يا ربنا لنا رسولاً حتى نتبع آياتك، ونكون من المؤمنين. فلولا قولهم وتعليلهم هذا بأن الذي دفعهم إلى ارتكاب الكفر هو عدم مجيء من ينبههم ويصحح لهم ما هم فيه، فلولا ذلك لما أرسلناك إليهم رسولاً، مبشراً ونذيرا. ولكن أرسلناك لإبطال حجتهم. وذلك لعلم الله تعالى السابق لهم بأنهم لن يؤمنوا بما جاء بهم الرسول صلى الله عليه وسلم. ونثبت لهم بهذا أنهم معاندون ومكابرون حتى بعد أن قامت عليهم الحجة، وظهر وتبين لهم الحق من الباطل، وبانت لهم سُبُل الخير والحق والرشاد من الضلال والفساد.

وقد بدأ البيان بأسلوب الامتناع ﴿وَلَوْلَآ﴾ حرف امتناع ﴿أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي: يحل عليهم عذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما بدر منهم من العصيان والفسوق والكفر. فورد الامتناع بحرف ﴿وَلَوْلَآ﴾ من أجل احتجاجهم، الذي هو ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ أي: هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهذا الاحتجاج كان مانعاً من نزول العذاب

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦٣/١٨)

عليهم قبل إرسال الرسول مبشراً ونذيرا. وهذا من عدل الله تعالى، بأنه لا يعذب إلا بعد إقامة الحجة، مع أنهم عبيده، وخالقهم، فله ما يشاء من الحكم، ولكنه يقرر عدله، ورحمته بعباده إلا من أبى إلا الكفر.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى جعل لفظ المصيبة نكرة، ومفرد أيضاً ﴿مُّصِيبَةُۢ﴾ لإفادة أنها واحدة مما يصيب بها من يشاء، لبيان كثرة تنوع العقوبة التي يصيب بها من يشاء، فيصيبهم بواحدة منها، فكان الإفراد لبيان أن واحدة منها كافية لهم من شدتها. وفي هذا إفادة التحذير والإنذار والترهيب، وأن على الإنسان أن ينظر في نفسه وطاعته وإيمانه لربه جَلَّ جلاله، ويدرك أن الحجة قامت عليه، وأن الحساب والجزاء حاصل له لا محالة.

ولكن قولهم واحتجاجهم عما سيقولونه فيما لو أصابتهم مصيبة، كان مانعاً حتى تقوم عليهم الحجة ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولكنهم كاذبون فيما لو قالوا قولهم هذا، وذلك لعلم الله تعالى السابق بأنهم كاذبون، ولكن اقتضت حكمته وعدله عَزَّ وجل أن يعدل مع عباده، بالرغم من علمه السابق بما سيكون ممن كفر. وهذا من بلوغ كمال عدله سبحانه وتعالى.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

واستكمالاً لبيان حقيقة تجذر وتأصل الكفر في الذين لو لم يأتيهم رسول، لقالوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً يا ربنا فنتبع آياتك. يخبر الله تعالى بحالهم بعد أن جاءهم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴾ فلما جاءهم الحق من خلال رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُواْ﴾ على سبيل العناد والاستكبار والتطاول ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ هلَّا أُوتِّي محمد مثل ما أُوتي موسى، كالعصا وآية اليد، والتوراة التي أنزلت جملة واحدة. فيريدون الأمر كما يشتهون، بالرغم من أن آيات القرآن أعظم إعجازاً، فإعجازه دائم غير بوقت ولا مكان ولا زمان، ولا

بوجود واستمرار حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث بلغ إعجازه ما شهدوا به له، كأبي الوليد، عتبة بن ربيعة، عندما قال فيه: أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش: أطيعون واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه. فاعتزلوه، فوالله ليكوناً لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم(١) فهذه شهادة من كافر. مما يدل على أن قولهم ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ ما هو إلا نوع من الجحود والتنطع والاستكبار على الحق، وتطاول لا ريب ولا شك فيه.

فيرد الله تعالى عليهم بما يدحض مطالبهم ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ فإنهم كفروا بآيات موسى، كما كفروا اليوم بآيات محمد صلى الله عليه وسلم ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ يعني: فكل سحر يُقَوِّي السحر الآخر، ويقصدون به: القرآن والتوراة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والظاهر على قراءة ﴿سِحْرَانِ﴾ أنهم يعنون التوراة والقرآن، لأنه قال بعده ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين التوراة والقرآن(٢) وكلمة ﴿تَظَٰهَرَا﴾ تعني أن كل سحر يعضد ويُقوي السحر الآخر، ونَسب هذا التظاهر إلى ﴿سِحْرَانِ﴾ بالقول ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ ليفيد الاتساع في شمول موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ووردت الإجابة من الله تعالى بصيغة السؤال الاستفهامي ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ليفيد التعجب من حالهم، وأيضاً تقرير كفر كل من كفر بموسى عليه السلام من قبل بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أضافوا إل كفرهم السابق بموسى الكفر بمحمد عليهما الصلاة والسلام، فلماذا لم يؤمنوا بموسى طالما أنهم رأوا أن حجته ملزمة للإيمان، ولكنهم كفروا بموسى وهم يطالبون بآيات مشابهة أو مماثلة لآيات موسى، فعجباً لحالهم، يكفرون بآيات موسى ويطالبون محمد صلى الله عليه وسلم بآيات مثل آيات موسى عليهما الصلاة والسلام، فكيف تطالبونه بمن كفرتم به، وكفر غيركم به أيضاً. فشأنهم يبعث التعجب، ويقرر جحودهم بالحق بعد أن عرفوه.

وبعد أن رموا الحجج بالسحر لقوتها التي أذهلتهم أعلنوا كفرهم ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ فبالجميع كافرون، بموسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام، بل بجميع الرسل، لأن لفظة ﴿بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ تفيد جميع المرسلين. مما يدل على قوة كفرهم وعنادهم، وأنهم عرفوا الحق وجحدوه وأنكروه. فيقررون ما قرره الله تعالى

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣١٣/١-٣١٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠٤/٣)

سابقاً عنهم ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والتي تم بيانها فيما سبق من هذه السورة الكريمة.

ويؤكد هذا الكفر الشامل لجميع المرسلين ما ورد في سورة الأنعام ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ ففي هذا القول إنكار للقرآن العظيم ولجميع الكتب، فردوه بقولهم هذا، ورموه بالافتراء، بل إن في هذا القول منهم ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ ما يعني أن القرآن مفترى، بل أنكروا جميع الكتب ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ وبالتالي كذبوا بجميع الرسل، بل في هذا نفي عام عن أن يكون الله تعالى قد أنزل على بشر من شيء، وجملة ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ نفي لكل نوع من الإنزال، سواء كانت كتب، أو كان توجيه وتبليغ، بل في ذلك قطع للعلاقة بين الله تعالى وبين البشر.

بل قد شمل النفي جميع الأنبياء والمرسلين ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ فقطعوا بذلك الاصطفاء والاختيار من الله تعالى للأنبياء والمرسلين، وكذلك نفي الوحي. مما يبين تقريرهم بأن الله تعالى ترك عباده هملا، وحاشاه سبحانه وتعالى وتنزه عن أن يترك عباده هملا من غير توجيه ورعاية، وهو الذي خلقهم لعبادته.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يلجمهم به، بأن يطلب منهم أن يأتوا بكتاب من عند الله تعالى هو أهدى من التوراة والقرآن إن كانوا صادقين بما رموا به التوراة والقرآن من السحر ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ قل يا أيها الرسول لهؤلاء الجاحدين للحق، بما يجعلهم في عجز من أمرهم، أمام الحق المبين ﴿فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ فأتوا من عند الله بكتاب هو أوضح وأكثر وأكمل هداية من التوراة والقرآن. وهو شأن ممتنع الحصول، ولكن لإظهار عجزهم في الإتيان بما هو أهدى. فأتوا من عند الله بكتاب هو أوضح وأبين وأكثر هداية من القرآن والتوراة حتى ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ وهذا بيان للتواضع، وأن المقصد هو الحق واتباعه، وليس اتباع الغير من غير حجة ودليل. فإنني ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ أي: أمتثل له معكم، ويكون حينئذ إنكاركم للقرآن والتوراة هو بعذر مقبول، وهو وجود الأفضل في الهداية ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ إن كنتم صادقين في كفركم وطعنكم في التوراة

والقرآن فأتوا بما هو أهدى منهما لنتبعه جميعاً، فهل تستطيعون ذلك؟ فإن لم تستطيعوا يلزمكم الاهتداء بالكتاب الذي أُنزل فيكم. وفي هذا إلجام وإفحام لهم، بما يفيد إثبات عجزهم عن ذلك، فيقرر لهم به وجوب الطاعة إذاً لما جاءكم من الهدى والحق الذي تعجزون أن تأتوا بمثله، والذي يتقرر بهذا العجز منكم: أنه كتاب أُنْزِل من عند الله عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى بالفائدة والنتيجة حال عجزهم أن يأتوا بكتاب أهدى من التوراة والقرآن ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فأن عجزوا فلم يستجيبوا لدعوتك، ولم يأتوا بالمطلوب منهم، وهو كتاب أهدى من القرآن والتوراة ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ فتأكد حينئذٍ أنهم إنما يتبعون زيفهم من الهوى من غير دليل ولا حجة، فليس فيما اتبعوه شيء من الحق.

ثم ينتقل السياق الكريم في تدرج من بيان إحقاق الحق إلى تقرير حالة من اتبع هواه بغير هدى منه سبحانه وتعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فليس هناك أحد أشد ضلالة ممن استحسن رأيه من الهوى الذي لا دليل عليه. وهو استفهام إنكاري، ينفي به سبحانه وتعالى صواب من اتبع هواه من غير اعتماد على حقائق الهدى التي تأتي من الهادي عَزَّ وجل. فإن في البيان من الله تعالى القطع والجزم بأنه ليس هناك أكثر ضلالة ممن اتباع الهوى. مما يفيد التحذير من مجاراة ما ينشأ من الخواطر، ووسوسة الشيطان، وما تستحليه النفس، أو تصوير الآخرين لطرق الضلال بأسلوب وهيئة تستثير الشبهات والشهوات. فالمقياس هو ﴿ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فكل أمر ليس من هدى الله تعالى فهو باطل. لأن القرآن والسنة اشتملتا على كمال الهدى، منهجاً وإرشاداً وتطبيقاً.

ثم يقرر الله سبحانه وتعالى حقيقة من يحظى بتوفيقه وهدايته جَلَّ جلاله، ومن لا يحظى ولا يفوز بها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن الله تعالى لا يوفق، ولا يعين الْمُصِرِّين على الظلم، وهو الكفر، حتى أصبح الظلم نعتاً وصفة لهم ﴿ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ثم من المبالغة أن وصفهم سبحانه وتعالى بالكثرة ﴿ ٱلْقَوْمَ ﴾ وهم الجماعة الكثيرة. فعلى كثرتهم، فإن كثرتهم لا تعني شيئاً عند الله تعالى إذا كفروا. فإن في عدم هدايتهم حتى وإن كثروا فلا قيمة لهم عند الله عَزَّ وجل، وذلك لبيان أن الله تعالى غني عن الكافرين مهما كانت كثرتهم. وبالمقابل تكون الهداية والتوفيق لمن خرج من الكفر إلى الطاعة، فإن الله تعالى يعينه ويوفقه ويسدده ليكون من المهتدين، الذين نالوا توفيق الله تعالى ومعيته وتسديده لهم.

ثم يخبر تبارك وتعالى بكمال وتمام إنعامه وإحسانه في عظيم ما أنزل من الهدى ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ولقد أوصلنا لهم بالتتابع المتكاثر والمتتالي ﴿ ٱلْقَوْلَ ﴾ بهذا القرآن العظيم، بما اشتمل عليه من أخبار الماضين، وما حل بمن كفر من بأس الله تعالى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لعلهم يتعظون، فيتبعون ويطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿ وَلَقَدْ ﴾ أفادت التحقيق والتأكيد، كما أفادت كلمة ﴿ وَصَّلْنَا ﴾ المبالغة في توصيل الهدى والحق، بتتابعه، وتفصيله على ما تضمنه القرآن الكريم من قوة التفصيل وعمق البيان الذي يمنع عنهم الجهل، وبما يؤكد لهم الهدى، مع إعجاز المضمون والمحتوى. كما شمل ضمير الجمع ﴿ لَهُمُ ﴾ جميع من أنكر، سواء من قريش، أو من اليهود، أو غيرهم. ونقل القرطبي وغيره رحمهم الله تعالى أن المراد ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ هم قريش، وقيل: اليهود، وقيل: هو لهم جميعاً. والآية رد على من قال هلا أُوتي محمد القرآن جملة واحدة [1] فكل كلمة أعطت كمال المراد، مع دقة الألفاظ، وجمال نسقها المعجز من كل وجه.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

بعد بيان الله العزيز الحكيم لحجية القرآن الكريم، وما كان من تكذيب المكذبين به، يُمَجِّدُ اللهُ تعالى القرآن العظيم، ويمتدح أهل العلم من أهل التوراة والإنجيل، بأنهم يعرفون أن القرآن مُنَزَّلٌ من عند الله تعالى، فيؤمنون به ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ يقرر تبارك وتعالى بأن الذين أعطاهم التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم يؤمنون بهذا القرآن، ويصدقون بأنه مُنَزَّلٌ من الله تعالى. والمقصود بهم أهل العلم الربانيين من أهل الكتاب، الذين استقامت نياتهم وإخلاصهم

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/١٩١)

لله تعالى، وخلصت نفوسهم من الحسد والكبر، وورد البيان بأسلوب التعميم ليفيد كثرتهم، وليفيد المدح والثناء عليهم. وفي هذا دليل وحجة، وآية عظيمة لقريش وغيرها على مر الأزمان بأن هذا القرآن العظيم من عند الله تعالى. وقد قال الله تعالى في سورة آل عمران ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ وفي هذا عظيم الثناء لمن أسلم منهم، سواء ما كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ما كان ويكون بعد ذلك.

ثم يخبر الله تعالى عن حال أهل الكتاب عندما يُتلى عليهم القرآن الكريم ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ فعندما يُتلى هذا القرآن على الذين آتيناهم الكتاب ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ يعلنون إيمانهم مباشرة، مؤكدين إيمانهم بإقرار صدق ما فيه ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا ﴾ إن هذا الكتاب هو الحق الذي نزل من ربنا على رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم. فأكدوه بنون التوكيد ﴿ إِنَّهُ ﴾ ووصفه بكلمة ودلالة ﴿ الْحَقُّ ﴾ التي تنفي جميع أضداد الحق من أنواع الباطل. ومؤكدين ذلك ببيان المصدر للقرآن الكريم، بأنه ﴿ مِن رَّبِّنَا ﴾ وليس مُفترى، وبالتالي الإيمان بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول من الله تعالى.

ثم يؤكدون علمهم السابق بما في الكتاب من شأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ فكنا به مؤمنون من قبل نزوله، وذلك بما عندنا من العلم عنه، بما يفيد: وأما وقد نزل فإننا مؤمنون ومصدقون به أنه كتابٌ مُنَزَّلٌ من عند ربنا على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا دليل وحجة بأن هذا القرآن حق من عند الله تعالى، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله جَلَّ في علاه. فإن علم أهل الكتاب بذلك حاصل لما في التوراة والإنجيل من الخبر به، فهم يعلمون ذلك من قبل، فيؤمنون به.

ثم يخبر الله تعالى بعظيم الثناء والأجر لمن أسلم من أهل الكتاب ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أولئك الذين آمنوا بالقرآن وبمحمد رسولاً واتبعوه من أهل الكتاب ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ أي: يُضاعف لهم الأجر مرتين: الأول: لإيمانهم برسولهم الأول، واتباعه. والأجر الثاني: لإيمانهم بالرسول الثاني: محمد صلى الله عليه وسلم، واتباعه. وقد ربط

الله تبارك وتعالى ذلك بما كان منهم من الصبر ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ لصبرهم على دينهم، وصبرهم على الانتقال إلى متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: بما صبروا على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس(١) ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أن من الأقوال في قوله تعالى ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾: أنه: بصبرهم على الكتاب الأول، واتباعهم محمد صلى الله عليه وسلم، وصبرهم على ذلك. وذلك قول قتادة. وقال آخرون: وعدهم بصبرهم بإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث، وباتباعهم إياه حين بُعِث، وذلك قول الضحاك بن مزاحم(٢) فهو شامل لجميع أنوع صبرهم المتعلق بطاعة الله تعالى، من التزام كتابهم الأول، ثم الانتقال إلى كتاب الله تعالى، القرآن العظيم، واتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ولم يثنيهم شيء من شهوات الدنيا وشبهاتها، وأطماعها، بل كانوا مُنقادين للحق.

والسبب الآخر متعلق بمسلكهم في التعامل ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أي: يجتنبون السيئة، وذلك بدفعها بالخير، فيدفعون الأذى بالصفح والعفو والتجاوز، فلا يقابلونه بالمثل. وهذا من عظيم الأخلاق، ومكارم الصفات الحميدة، التي يتجنب بها العبد ضرر المسيء، لأن من يسيء لغيره متمادي في الجهل والغي، ويتجاوز في تصرفاته على غيره، ويندفع شره بالتي هي أحسن.

والسبب الثالث: الإنفاق في أوجه الخير ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي: ومما منحناهم ورزقناهم من أنواع الخير، ينفقون منه في الأوجه المستحقة من الخير. فيسدلون الخير على غيرهم من المال والعطاء، بحسب نوع الرزق الذي رزقهم الله تعالى. مما يفيد محبة الله تعالى لهذه الخصال الحميدة، التي يحث الإسلام عليها، لما فيها من عموم الخير.

وإضافة إلى ما سبق من كريم صفات مَن آمن من أهل الكتاب ترفعهم عن اللغو. فقال الله عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فمن كريم وجليل صفات من آمن من أهل الكتاب أنهم ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ ﴾ أن حالهم عند سماع الباطل والقبيح من الكلام، وهو اللغو، الذي يشمل الشتم والأذى من الكفار ونحوه ﴿ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ لم يُقابِلُوه بالرد، بل يصدون عنه، وكأنهم لم يسمعوا شيئاً ﴿ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠٥/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٧٩/١٨)

وقالوا لمن صدر منه اللغو من السب والشتم: قالوا: لنا أعمالنا، فهي ملتصقة بنا، وسوف نحاسب عليها، ويجازينا الله تعالى بذلك. كما أن أعمالكم مما يصدر عنكم من الجهالة ملتصقة بكم، وسوف تحاسبون عليها، فيحمل كل منا أعماله كاملة، ويُحَصِّل جزاءها أمامه. ثم أكملوا إعراضهم عن أهل اللغوي بقولهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ لكم منا المسالمة، بعدم الرد على لغوكم بمثله. أي: هو سلام متاركة وإعراض، وعدم اشغال النفس بهم وبِلَغْوِهِم، فلكم مِنَّا ما تسلمون به من أي إساءة مماثلة لإساءتكم. ثم عللوا متاركتهم لهم ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ لا نحب معاملة ومجالسة ومخالطة أهل الجهل، المتخلقين بأخلاق الجهالة، فنترفع بأنفسنا عن ذلك، وعن مَن جَهِلَ الدين الحقيقي، وارتكب الشرك والكفر، ونطق بالسفاهة وقلة المرؤة.

وفي هذا منهج عظيم في كيفية التعامل مع أهل الجهل والسفاهة، ممن أغرتهم الحياة الدنيا، وما هم فيه من محبة الباطل والاستعلاء به على أهل الحق. فأول ذلك: هو الإعراض عن أهل الجهل، وعدم مناكفتهم بالردود على سيئات أعمالهم، وإبلاغهم بالسلامة وسلام المتاركة، فلهم السلام وليس المجاراة لهم في لغوهم وباطلهم. كما فيه عدم مجالسة ومخالطة أهل الجهل من السفهاء، والابتعاد عنهم، وعدم اشغال الذهن بالرد عليهم. بل صرف الذهن فيما يحقق الصلاح والفلاح. فهو منهج بليغ في أثره.

ثم يُخبر الله تعالى رسوله بمنطلق هداية الخلق ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ يا أيها النبي ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ لا تستطيع أن تهدي من تحب هدايته، فإذا كان هذا في حق النبي صلى الله عليه وسلم فإنه في حق غيره أولى. فإن الذي للنبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في سورة الشورى، هداية الإرشاد والبيان ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ إنك أيها النبي تهدي بما معك من الحق إلى الطريق المستقيم، المفضي إلى الجنة. فهي مقتصرة على هداية الدلالة والإرشاد. وأما هداية التوفيق فليست لأحد من الخلق ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ فقد بلغت المبالغة في الامتناع من أن تكون من النبي صلى الله عليه وسلم، بل وإلى درجة امتناع تحققها لمن انعطف القلب عليه محبة، بأنك أحببت له أن يهتدي. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وذُكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل امتناع أبي طالب عمه من إجابته[1] وفي صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه عند الموت (قل: لا إله إلا الله. أشهد لك بها يوم القيامة) فأبى، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾وفي رواية أخرى: قال له عمه: لولا أن تعيرني قريش.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٣/١٨)

يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك[١] ولذلك فإن الله تعالى أعلم بقلوب عباده، وبمن هو صالح للهداية. وإنما الذي للخلق هو هداية الدلالة والبيان، بأن ترشد وتدل على الخير، وتحث عليه. ولكن قد لا يتحقق المراد، لأنه لا يملك هداية التوفيق التي استأثر الله تعالى بها إلا هو عَزَّ وجل، حيث قال تبارك وتعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ وأما الله تعالى فإنه يعطف قلب من يشاء على الهداية بفضله وكرمه. مما يحث المسلم على سؤال الله تعالى بالدعاء، وكثرة الطلب، كما كان منه صلى الله عليه وسلم (اللهم اهد دوساً، وآت بهم) [٢]

ثم يقرر سبحانه حصر العلم له وحده لا شريك له فيمن يستحق الهداية ومن لا يستحقها. فقال تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فإن ربك وحده هو العالم بمن يهتدي ويؤمن، فيستحق الهداية ممن لا لا يهتدي ويمتنع عن الهداية فلا يستحقها. وقد ورد البيان عن علم الله تعالى بصيغة المبالغة ﴿أَعۡلَمُ﴾ فلا أعلم منه بالمهتدين. فإن الله تعالى يعلم الراغب في الحق والمتواضع له ممن يستحق الهداية، ويعلم الذي قلبه مملوء بالكبر والجحود والاستعلاء. فله الأمر والشأن كله، ولا معقب لحكمه سبحانه وتعالى. مما يفيد شدة فقر وعَوَز الإنسان لربه عَزَّ وجل، وأهمية الالتجاء إلى الله تعالى بسؤاله الهداية للنفس وللغير، ولمن له محبة خاصة في النفس. فهو القادر على كل شيء، وهو المالك لكل شيء.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن سوء طوية المشركين المكذبين، وظنونهم الخبيثة السيئة ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا

(١) مسلم، صحيح مسلم (٥٥/١) برقم (٢٥)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٢٩٣٧)

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال المشركون المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ إذا اتبعناك فيما أتيتنا به من الهدى، وخالفنا غيرنا، فإننا نخشى أن العرب تُخرجنا من أرضنا، التي هي مكة. بما يفيد أننا نعلم صواب ما أتيتنا به، ولذلك أسموه بالهدى ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ﴾ واستخدموا ما يفيد المبالغة في الانتزاع وشدة الأخذ لهم من مكة ﴿نُتَخَطَّفْ﴾ أي: نُنتزع منها بقوة وسرعة، من شدة حنقهم علينا إن اتبعناك فيما جئت به. مما يفيد ويدل على أنهم يَدَّعُون ذلك كذباً وزورا، ثم حتى لو كان حقيقة، فإن طاعة الله تعالى أولى وأوجب من طاعة غيره، ومن حظوظ النفس الفانية.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بكذبهم، وعدم صدقهم، وخبثهم. فيقررهم بما يعرفون من إنعامه سبحانه وتعالى على مكة وأهلها من الْحُرمَةِ والتمكين والأمن لها ولمن سكن فيها ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ فيقررهم بسؤال تقبيح لهم، واستنكار عما يعرفونه عن مكة من أمنها وحرمتها التي ترسخت عند العرب جميعاً، بما حصل لأبرهة الحبشي عندما أراد هدم الكعبة، فرماه الله تعالى بالطير الأبابيل التي تحمل الحجارة فتقذفه وجنوده بها، كما في سورة الفيل. فهو استنكار من أن يكون الله تعالى لم يحقق لهم حرماً آمناً عندما جحدوا ذلك بقولهم ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ ألم يعلموا بأنه قد تحقق لهم الأمن بمكة من كل من أراد بها وبأهلها السوء. لأن الله تعالى جعلهم في بلده الحرام، والآمن المعظم، فكيف لا يكون آمناً وقد جاءهم الهدى من ربهم؟ لأن العرب كانت تعيش في غارت بعضهم على بعض، ولا يحدث هذا لقريش بمكة، لما جعل الله تعالى لها من الحرمة، حتى عرف العرب ذلك كلهم. وورد البيان من الله تعالى في تحقيق الأمن لهم بدلالة لفظة التمكين ﴿نُمَكِّن﴾ التي تعني: قوة الاقتدار بحيث لا يستطيع أن ينازعهم أحد. وذلك بترسيخ قدمهم في التمكين بمكة. ليتبين أن التمكين كله الله تعالى، ينزعه ممن يشاء، ويؤتيه من يشاء بحكمته وقدرته. وإذا مَكَّن أحداً أقدره على ما منحه وأعطاه.

بل جعل الثمرات تؤتى بها إلى مكة ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فتُجمَع وتُجلب إلى مكة ﴿ثَمَرَاتُ﴾ وهي جمع ثمرة، لتفيد الكثرة والتنوع ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فأكد سبحانه وتعالى التنوع بدلالة ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ فجمع لهم بين التنوع والكثرة، من الأماكن المجاورة لهم، والتي يمكنها إيصال ثمراتها إليها. وسماه ﴿رِّزْقًا﴾ ليفيد الإنعام والتخصيص لهم به. ثم أضاف هذا العطاء إليه سبحانه وتعالى ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ تعظيماً وتبجيلاً لهذا الإكرام الذي يستوجب الطاعة والانقياد والانكسار للحق الذي جاءهم به من ربهم الذي

أنعم عليهم بهذا الرزق وهذا التشريف، والأمن الذي يعيشونه من بين القبائل قاطبة، والتي تكثر فيها الغارات فيما بينها. وهذا يبين سعة عطاء الله تعالى، وأنه إذا أعطى أجزل في العطاء، وأنه يدبر أمر الرزق بما لا يخطر ببال أحد، فسخر جمع الثمار لهم، ناضجة طيبة، لينعموا بها في مدينتهم مكة. فمنذ أن حَرَّم سبحانه وتعالى مكة، فإنها المكان الآمن، والمكان الذي تُجبى إليه الثمرات من كل مكان، نشاهده، ويشاهده كل من دخل مكة حتى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة.

ثم ينعتهم الله تعالى بجهلهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن السبب في ذلك أن أكثرهم لا يعلمون العلم الذي يشعرون به واقع ما يعيشون فيه من الإنعام العظيم من ربهم تبارك وتعالى. ويجهلون أن في اتباعهم الحق الذي اعترفوا به أنه يوصلهم لسعادة الدارين. بما يفيد أن القليل منهم هم المدركون لذلك. ولعلهم هم الذين أسلموا منهم. مما يفيد أن على المؤمن أن يتفكر ويتأمل في تدبير الله تعالى، فإن ذلك يزيده إيماناً، ويقيناً، وطمأنينة، لإدراكه أن الله تعالى بيده مقاليد الأمور، وأنه عَزَّ في علاه خير مُدَبِّرٍ للعباد.

ثم يحيلهم سبحانه وتعالى ويحيل كل أحد من العباد إلى التفكر والتأمل فيمن سبق من الأمم المكذبة بالمرسلين ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ فكثير من أهل القرى تم إهلاكها بعذابنا عندما طغوا والتهوا بمعيشتهم في غرور وبطر وأشر. فبدأ البيان الكريم بالتكثير لعددهم ﴿وَكَمْ﴾ لإفادة التهويل والتحذير، بأن عدد تلك القرى كان في غاية الكثرة، مما يدل على أن اللاحق لم يتعظ بالسابق ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ فكم وقع من العذاب المهلك والمدمر، للقرى التي أهلكناها، كقوم نوح، وعاد وثمود وقوم لوط، بسبب أنها ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ والبطر هو: استعمال نعم الله تعالى في الغرور والأشر والبطر، فأسرفت وطغت فيما رزقهم الله تعالى من كريم العيش والمعاش، فكفرت ولم تشكر المنعم سبحانه وتعالى بما أنعم، فتطيعه، وتقوم بحق الشكر. مما يدل على عظيم الإنعام الذي أنعم الله تعالى به عليهم، ولكنهم ازدادوا به طغياناً. مما يفيد الحذر من طغيان النعمة، ووجوب الشكر والحمد للمنعم سبحانه وتعالى، والتواضع مع الطاعة له عَزَّ وجل.

ثم ينتقل البيان الكريم العظيم إلى توجيه النظر والفكر للتأمل والتَّمعُّن ﴿فَتِلْكَ﴾ اسم إشارة إلى ﴿مَسَاكِنُهُمْ﴾ الباقية الخالية بعدهم ﴿لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لم يحصل فيها السكن من بعدهم إلا يسيراً من مار، ومسافر، لأنه لم يعش بعدهم وريث يسكنها ويعمرها، بل شمل العذاب جميع من بطر بمعيشته عن الطاعة، إذ أطغتهم النعمة، وجعلتهم يتكبرون ويستعلون على الحق والامتثال للمرسلين الذين

جاؤوهم بالحق والبرهان والحجج. ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ فليس هناك وارث ولا مالك لها، إلا الله سبحانه وتعالى، فهو المالك لها. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وقصر إرث المساكن على الله تعالى حقيقي. أي لا يرثها غيرنا. وهو كناية عن حرمان تلك المساكن من الساكن. وتلك الكناية رمز إلى شدة غضب الله تعالى على أهلها[١] فكل شيء عائد إلى الله تعالى. فهي صورة جزئية للحياة الدنيا، إذ يفنى الخلق جميعاً فيرث الله تعالى الأرض ومن عليها كما ورد في سورة مريم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ثم يخبر الله تعالى عن كمال عدله مع عباده ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ فإن من حكمته عَزَّ وجل ورحمته أنه لا يهلك أمة لمجرد كفرها حتى يبعث فيها رسولاً، فينذرهم من الكفر، ويبشر من أطاع الله ورسوله ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ فقد قضى سبحانه وتعالى بعظيم عدله أن لا يهلك القرى بسبب كفرها ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ حتى يبعث رسولاً في أكبرها وأعلمها وأعظمها شأناً، لأن الناس في القرى التي حولها يأتون ويترددون على أعظمها، وبالتالي يعلمون ما يكون فيها من شأن. فتقوم الحجة على الجميع بما علموا. وكذلك يكون المقصود بأم القرى: مكة حرسها الله تعالى.

فهناك قولان في ذلك: قال القرطبي رحمه الله تعالى: يعني مكة. و﴿ رَسُولًا ﴾ يعني محمد صلى الله عليه وسلم. وقيل ﴿ فِىٓ أُمِّهَا ﴾ يعني في أعظمها ﴿ رَسُولًا ﴾ ينذرهم[٢] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ومعنى ﴿ فِىٓ أُمِّهَا ﴾ أكبرها وأعظمها، وخص الأعظم منها بالبعثة إليها، لأن فيها أشراف القوم، وأهل الفهم والرأي، فصارت بهذا الاعتبار كالأم لما حولها من القرى. وقيل: المراد بأم القرى هنا مكة[٣] والحقيقة أنها تشمل المعنيين بنص واحد، وهذا من غزارة البيان في طريقة تراكيب الكلمات والألفاظ، وبناء السياق المعجز في معطياته. فهو عام بأن الله تعالى لا يعذب أمة كافرة حتى يبعث في أعظم وأكبر مدنها رسولاً، ومنها مكة أم القرى ذات الشمول لكل الأرض، باعتبار أن الرسول خاتم النبيين والمرسلين، وأن رسالته للناس أجمعين، كما

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٠٩/٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٩/١٣)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٢٨١/٤)

في سورة سبأ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وتكون مهمة الرسول هي ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ يقرأ عليهم ما احتواه كتاب الله تعالى، فيُسمعهم تشريع ربنا تبارك وتعالى، وما فيه من الأخبار والإخبار بما يجب عليهم، وما يقابله من الثواب لمن أطاع، وما يقابله من العذاب لمن عصاه. ثم يخبر سبحانه وتعالى بموجب إهلاك الأمم، وهو امتناعها عن الطاعة، وامتناعها عن الاستجابة لله تعالى ولمن أرسلهم من الرسل ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ يؤكد تبارك وتعالى أنه لا يمكن أن يهلك القرى إلا إذا كفر أهلها، وامتنعوا على من أرسلهم من المرسلين، فيتحقق منهم الظلم لأنفسهم بالكفر والعصيان والتمرد. فيكون قد استوجب أهلها العذاب بظلمهم. مما يبين عدل وحلم وعظيم تدبير الله تعالى، وأنه ما أراد للعباد العذاب، ولكن هم الذين استوجبوا على أنفسهم الهلاك بكفرهم.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يحث الله تبارك وتعالى عباده على عدم الغرور بالدنيا وزينتها ومفاتنها، وأن يكون همهم الآخرة التي هي خير وأبقى، وذلك ببيان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، فقال تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ يخبر الله تعالى عباده بحقيقة الذي في الدنيا من الخير والنعيم، فإنه شيء زهيد مقارنة بما في الآخرة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ فما أعطيتم أيها الناس من متاع

متنوع فإنه خاص بالدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾ فهو متاع متعلق بحياتكم في الدنيا، وزينة لها، فنسب الزينة للدنيا ﴿وَزِينَتُهَا﴾ وأنكم تتزينون بها، وتتجملون بما فيها من الجمال في الملبس والمركب والمسكن، وفي التكاثر، ونحو ذلك.

ففي ذلك تصحيح وتصويب للمفاهيم والأفكار. كما ورد الإيتاء بأسلوب الإعطاء الذي لم يُذكر اسم فاعله ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ لشد الانتباه للذي يوجهكم إليه سبحانه وتعالى، وهو العطاء ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾ والذي ورد بصيغة التبعيض، أي: من بعض الذي أعطاكم. فعلى كثرة ما أعطاكم فهو بعضه، لإفادة كثرة ما عند الله تعالى مما لا يُعد ولا يُحصى. كما يفيد أن ربكم هو المعطي، فهو الذي أقدركم على تحصيل ما أعطاكم، وليس بتدبيركم المنفصل عن تدبير الله تعالى، بل الذي كان منكم هو السعي، ومنه جَلَّ جلاله العطاء والإنعام. فلا تعتقدوا أنكم حصلتم على ما حصلتم عليه من الدنيا هو بفضل حنكتكم وقدرتكم. لِيُظهر ويُحي في النفوس الفهم الصحيح، والتواضع عند تحصيل النعمة، وحُسن التدبير. وسؤال الله تعالى النعمة، وشكره عليها.

كم أفاد قوله تعالى ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾ التبعيض، فما أوتيتم هو بعض الشيء، وليس كله، بما يفيد أن خير الله تعالى أوسع مما آتاكم، وأنه واسع ومتنوع، فلستم متشابهين في تحصيل الأشياء، بل متنوعين، حتى في التدبير والتفكير، ونوع ومقدار التحصيل، لتحصل الحاجة المتبادلة بين العباد. وهذا من كمال تدبيره عَزَّ وجل، وربط عباده بعضهم ببعض. وسماه سبحانه وتعالى ﴿فَمَتَٰعُ﴾ والمتاع هو: هو ما يُنْتَفَعُ به، مثل المال، والأطعمة، ونحوها. ثم قصر ونسب هذا المتاع على الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فقط، بما يفيد أن متاع الآخرة غير ذلك، ومختلف عنه تماماً ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٍ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَا﴾ فحظكم من ذلك المتاع هو الاستمتاع بزينتها، والاختبار والابتلاء. ونسب سبحانه وتعالى الزينة للدنيا ﴿وَزِينَتُهَا﴾ بما يفيد بقاءها في الدنيا بعد رحيلكم عنها، فليست راحلة معكم، فمن مات فقد ترك جميع زينة الدنيا. فحظكم إذاً من تلك الزينة هو الاستمتاع بها، والاختبار والابتلاء، بما يفيد أهمية إعادة التفكير في الاستمتاع بها، وعدم الغرور بما فيها، وألا تشغلكم عما هو لكم في الآخرة.

ثم بعد بيانه سبحانه لحقيقة الدنيا وما فيها من متاع وزينة، وحظ الإنسان منها، يقرر لعباده أن الذي في الآخرة خير من هذا الذي أشغلكم من المتاع والزينة ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ فالذي في الآخرة متصف بالخيرية وبالبقاء ﴿خَيۡرٞ﴾ وقد وردت الخيرية بصيغة العموم، لتفيد الأفضلية في كل شيء، بما لا

يتصوره الإنسان، ولا يخطر على قلب بشر. وكذلك متصف بالبقاء ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ فلا يزول كما هو الحال في الدنيا، بل نعيم دائم لا يزول أبداً. ثم يوجه تبارك وتعالى عباده إلى التأمل والتدبر بالمقارنة المفضية والمؤدية إلى أن العاقل يتعلق قلبه بالآخرة، ويعمل لها، ولا يتعلق قلبه بالفاني المضمحل، بل بالأعظم والأحسن والأبقى.

ولذلك ختم تبارك وتعالى هذه الآية بسؤال يحث على التعقل ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أفلا تعملون عقولكم فيما أخْبَرَكُمْ به ربكم، أفلا تفكرون في الأنفع لكم، وأنتم الْمُنْعَم عليكم بالعقول المتدبرة والمفكرة. وهو سؤال استحثاث، ودفع وترغيب للتأمل والتفكر والتعقل. مما يبين أن منهج هذا الدين في التعليم والدعوة قائم على الحقائق، وإمعان الفكر الذي يصل به الإنسان إلى الحق بعد توفيق الله عَزَّ وجل، وأنه ليس نصح بلا قواعد وبراهين وحجج، بل مبني على براهين من رب العالمين، ليتأكد لكل عاقل أن هذا الدين هو دين الله تعالى الذي أنزله على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد المقارنة بين متاع الدنيا والآخرة، يتدرج البيان إلى بيان المفارقة بين أهل الجنة وأهل النار، وانتفاء التسوية بينهم أبداً. فبدأ البيان بسؤال استنكار من أن تكون هناك تسوية بين الفريقين، بناء على ما وعد عَزَّ وجل كل فريق بما يستحق ﴿ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ أيعقل، وهل يمكن العدل والمساواة بين من وعدناه الجنة، وبين من أعطيناه ما يريد من متاع الدنيا، وتخلى عن إرادة الآخرة. سؤال استنكار من أن تحصل التسوية في حق فرقين متضادين في العمل والامتثال والطاعة. وسؤال يقرر به عَزَّ وجل المفارقة في الجزاء بين الطرفين.

فبدأت الآية الكريمة بتقرير اختلاف النتيجة بحسب اختيار ما وُعِدَ به كل فريق ﴿ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا ﴾ وهو الفريق الذي اتبع رسوله، رجاء وابتغاء ما وعد الله تعالى به، وهو الوعد الحسن ﴿ وَعۡدًا حَسَنٗا ﴾ وهو الوعد بالجنة. فالواعد هو الله سبحانه وتعالى الذي لا يخلف وعده أبداً، والموعود هو الطائع لربه، والموعود به هو ﴿ وَعۡدًا حَسَنٗا ﴾ وهي الجنة. ثم يقرر جَلَّ في علاه تحصيل الموعود بما وعده الله تعالى به ﴿ فَهُوَ لَٰقِيهِ ﴾ فهو محصله، وفق ما وعده الله تعالى به.

فهل هذا يستوي هذا الذي آثر الآخرة مع من استعجل عطاء الله تعالى في الدنيا، وحَرَمَ نفسه نعيم الآخرة ﴿ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أيكون حال المؤمن الموعود بالجنة التي يلقاها كما وعده ربه بها كمن اختار متاع الدنيا، فأعطيناه ما نشاء من مُتعها، لقاء استئثاره بها عن الآخرة بجحوده، وعدم إيمانه، وعدم امتثاله لربه تبارك وتعالى. بما يفيد أنه استعجل الدنيا واستأثر بها عن الآخرة بكفره. وأما في الآخرة فإن حاله

سيكون في العذاب المقيم ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ فهو يوم القيامة محضر في النار مع المحضرين إليها. وقد ورد تحصيل وإعطاء ومنح متاع الحياة الدنيا إلى الله تعالى ﴿كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فالذي وفَّاه ما طلب واختار هو الله تعالى، فهو الذي متعه وأنعم عليه عَزَّ وجل، فكل خير هو من الله سبحانه وتعالى، فهو الذي متعه بقدر ما يشاء، والعبد هو الذي اختار. مما يبين عظيم عدل الله تعالى أولاً، ثم تحذيره جَلَّ جلاله من المحصلة الخاسرة والمنتهية بالفناء، مع بيان ما هو كائن وما سيكون قبل أن يكون، ليكون هذا نذير، وإقامة الحجة على عباده، حتى لا يلوم كل أحد إلا نفسه. فقد حذر في الآية التي قبلها من خلال الكشف عن متاع الدنيا وزينتها وزوالها، وزوال العبد عنها، وما سيكون في الآخرة من الجنة والنار. كما جاء البيان من ربنا تبارك وتعالى بأسلوب يجعل الْمُخَاطَب وكأنه يعيش تلك التفاصيل. فسبحان الله والحمد لله رب العالمين. اللهم ثبتنا على الحق حتى نلقاك وأنت راض عنا.

ثم ينتقل البيان إلى المزيد من الإيضاح لحال الكافرين يوم القيامة ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ واذكروا يا أيها الناس ذلك اليوم الذي يحصل فيه النداء للمشركين، وهو نداء ترويع، ونداء تهويل وتوبيخ، وتأنيب ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ يوم يحصل النداء لهم عن عدم تحقيقهم لتوحيد ربهم ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ﴾ أين الذين كنتم تشركونهم مع ربكم وخالقكم، أين هم اليوم عنكم، أين أولئك ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أين المعبودات من غير الله تعالى التي كنتم ﴿تَزْعُمُونَ ﴾ تفترون، وتُصِرُّون على عبادتها، وأنها تنفعكم، فأين هي اليوم لتقدم لكم النفع. وفي هذا إبطال من الله تعالى لجميع أنواع الشرك، بما يفيد التحذير اليوم لمن هو على الشرك قائم، فإن الله تعالى موبخه على ما كان منه، ويحشره إلى جهنم وبئس المصير.

ثم يذكر الله تعالى الحال التي سيكون عليها المشركون والشركاء يوم القيامة، حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم، ويبتعدون عن الشرك. فقال جَلَّ جلاله ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ فإن قائمة أهل الكفر من الرؤساء وأعمدتهم الذين وجب عليهم مقتضى صنيعهم من الكفر والغواية، وكذلك غوايتهم لغيرهم، أنهم يوم القيامة يكون قولهم هو: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي: الذين حق عليهم العذاب يوم القيامة، وهم رؤساء الكفر والغواية ﴿ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ ﴾ أي: هؤلاء الاتباع الذين دعوناهم للغواية، فيعينونهم ويشهدون عليهم وعلى أنفسهم، ويعلنون اعترافهم لله تعالى، لأنه لا مجال للكذب والمراوغة والتحايل. ثم يخبرون عن أنفسهم بسبب

إضلال هؤلاء الأتباع ﴿ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ أضللنا هؤلاء الأتباع كما حصل لنا من الغواية. بما يفيد أن الضال يجتهد في تكثير سواده بغيره، حتى ترتاح نفسه بكثرة الغاوين من الأتباع المماثلين له، ثم يباهي ويستعلي بهم في الدنيا. ثم يتشبث بهم وبضلالهم، حتى لا يفارق ضلاله مع رؤيته للحق واعترافه به في كينونة نفسه.

ثم حينها يعلن البراءة في الوقت الذي لا ينتفع بها ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ﴾ فيتبرأ رؤساء الضلال من أتباعهم الذين أطاعوهم، فيتبرأ بعظهم من بعض، فيتحولوا إلى أعداء كما قال تعالى عنهم في سورة الزخرف ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ فكل واحد يتبرأ من الآخر ويعاديه، حتى لا تزداد عقوبته بجريرة غيره. ثم ينفي المعبودون عبادة هؤلاء لهم ﴿ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ لم يكن هؤلاء يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، ويتتبعون شهواتهم. مما يبين ويوضح للأحياء أن لا يغتروا بالزعامات، وبالحظوة، وبزخرف الدنيا. فسيأتي اليوم الذي يتبرأ فيه أهل الضلالة من بعضهم البعض، فكل واحد يريد الفكاك من الآخر، حتى لا يجمع مع جريرته جريرة غيره من الفاسدين مثله. فمن رحمة الله تعالى بالعباد توضيحه لهم ما هو كائن وسائر قبل أن يكون. حتى يكونوا على علم، وحجة من الله تعالى عليهم. مما يبين ويؤكد أن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، ولا يريد لعباده الكفر، وأن الإنسان هو المسؤول عن نفسه.

ثم يؤمرون بما هم عاجزون عنه ذلك اليوم، تقبيحاً لما كان منهم ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ اطلبوا واستغيثوا واستعينوا بآلهتكم ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ اطلبوا من آلهتكم التي كنتم تعبدونها في الدنيا ليدفعوا عنكم العذاب ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ فدعا العابدون ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى، ولكن ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ فلم يستجيبوا لمن استغاث بهم ممن كانوا يعبدونهم ويمجدونهم، ويحمدونهم من دون الله تعالى، وهنا رأوا بأعينهم ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ شاهدوا العذاب الذي سيؤلون إليه مذعنين. فإنه موقف يكشفه القرآن لهم به الحقيقة التي سيعيشونها قبل أن يعيشوها.

ثم يخبر الله تعالى بأنهم لو اهتدوا لما حصل لهم هذا ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ فلوا أنهم لزموا الهداية في الدنيا لما حصل لهم هذا العذاب، بما يفيد: أنهم هم الذين جنوا على أنفسهم، واختاروا طريق الباطل.

ومن دقائق البيان في عرض شأنهم أن أورد الله تعالى القول لهم بصيغة الماضي ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ وأخبر عن دعوتهم لشركائهم بصيغة الماضي أيضاً ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ وكذلك رؤيتهم للعذاب ﴿ وَرَأَوُاْ

﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ ليفيد: القطع بحصول ذلك لمن لم يتب، وكذلك لشد ذهن الْمُخَاطَب وكأنه يعايش الأحداث، ويشاهدها أمامه. وهذا من براعة البيان، وقوة بلاغته، وقوة مقصده وتأثيره، بما يثير حقائق الإعجاز أمام الْمُخَاطَب به. حتى يكون الإنسان على حذر، بعد أن قامت الحجة البالغة عليه بمشاهدها المختلفة من جميع جوانبها.

ثم يزداد الكشف والتعرية لما كان منهم في الدنيا من صدهم وردهم لما جاءهم به المرسلين من الله تعالى ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ واذكروا أيها الْمُخَاطَبون حين يناديهم المنادي من قِبَل الله تعالى ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ما كان جوابكم للمرسلين الذين أرسلهم الله تعالى إليكم بالهدى ودين الحق، ونهيهم لكم عن الشرك والكفر، ومساوئ الأخلاق؟ والله تعالى أعلم بما كان منهم، ولكن لتقريرهم بما كان منهم، ولبيان أن الله تعالى لا يظلم أحداً، ولو مثقال ذرة. ولإفادة اللوم لهم، والتوبيخ، وليحصل لهم عذاب الحسرة والندامة على ما فاتهم. وليكون محفزاً لهداية الناس من المشركين، وغيرهم من أهل الكفر والضلال. إنه سؤال يعظ به الأحياء بأن يغتنموا سعة الحياة بالتوبة والاستجابة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالطاعة والامتثال، وعدم تفويت فرصة الحياة الدنيا، فلا عدول ولا توبة ولا رجوع بعد الموت.

وهنا تحيروا، فلم يستطيعوا الجواب ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فقد خفيت عليهم الإجابة والحجج، فلم يجدوا عذراً، ولا شيئاً مما يحتجون به، لأنه لا صواب عندهم يحتجون به، إلى درجة أنهم لا يتناجون بينهم ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فإن مما هم فيه من هول الموقف لا يتساءلون فيما بينهم تساؤل انتفاع، للإجابة على ما سُئِلُوا عنه. فإن صورة وهيئة حالتهم كحال مَن أُلجم، فلم تَعُد له القدرة على الكلام. لغياب الصواب عنهم حتى يقولوه. إذ لا صواب عندهم يذكرونه ويحتجون به. وفي هذا غاية الموعظة المحذرة من مثل هذا الموقف الرهيب والْمَهِيب. فنسأل الله تعالى السلامة والهداية والتوفيق.

ثم بعد ذلك العرض والبيان الواعظ المهيب، يفتح الله تعالى طريق النجاة والتوبة لمن هو على قيد الحياة من المشركين، وعموم الكافرين ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ فأما من تاب من هؤلاء المشركين في الدنيا عن شركه وكفره، وجمع الركائز الثلاث المنجيات، التي أولها التوبة ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ بأن استغفر، وأقلع عن معصيته، وجزم بعدم العودة إليها. وثانيها الإيمان ﴿وَءَامَنَ﴾ بالتصديق الجازم بالله ورُسُلِه وكتبه، وملائكته، وباليوم الآخر، وبجميع متعلقات ومفردات الإيمان. وأما ثالثها عمل الصالحات ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ وفق ما شرع ربنا تبارك وتعالى من العبادات وغيرها ﴿فَعَسَىٰٓ

﴿أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: من الناجين من عذاب الله تعالى، الفائزين بالمطلوب منهم. وكلمة ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ من الله تفيد التحقق، ولكنها تشحذ الهمة نحو التوبة، وتُعطي التائب الرجاء والأمل، والاجتهاد في الطاعة، والمداومة عليها حتى يلقى الله تعالى، فيفوز برضاه وبجنته عَزَّ وجل. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى عن ﴿فَعَسَىٰٓ﴾: ترجٍّ، لتمثيل حالهم بحال من يرجى منه الفلاح ﴿أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أشد في إثبات الفلاح من: أن يفلح[1] فإن الله تعالى يفرح بتوبة العبد، قال صلى الله عليه وسلم (لله أشد فرحاً بتوبة عبده، من الرجل براحلته)[2] أي: براحلته التي ضاعت منه فوجدها. وهذا من رحمته عَزَّ وجل بعباده، ومحبته للمتقين.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
(٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى
ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ
ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ
(٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾

يخبر الله تعالى عن كمال ملكه، وقدرته، وعظيم سلطانه، فيخاطب نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بذلك الشأن ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يَقْصُرُ سبحانه وتعالى خلق الأشياء، واختيار ما يختاره على نفسه عَزَّ وجل، وليس لأحد من خلقه شيء من ذلك ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وربك أيها النبي صلى الله عليه وسلم يخلق ما يشاء من

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٨١/٤)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (٢١٠٤/٤) برقم (٢٧٤٦)

الخلائق المتنوعة، وبالكيفية التي يختارها سبحانه وتعالى. والخطاب بيان عام لكل الناس، ولكن خص به الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنه المكلف بإبلاغ الناس، ورفعة لمنزلته ومكانته، وإثبات أنه عليه الصلاة والسلام هو المعني بمخاطبة الناس وإرشادهم بما يُوحيه الله تعالى إليه. وورد بلفظ الربوبية ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي هو ربك ورب كل شيء ومالكه والمتصرف فيه، ثم جاء بعده ما يؤكد ذلك ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ يخلق ما يريد أن يخلقه بالكيفية التي يشاء سبحانه وتعالى، بما يفيد أنه رب كل المخلوقات. وفي هذا إظهار لعظيم ملكه وسلطانه وقدرته، التي تستوجب من العباد طاعته سبحانه وتعالى.

ثم يوضح ويؤكد الله تعالى عظيم سلطانه وإرادته بقوله عَزَّ وجل ﴿وَيَخْتَارُ﴾ فالاختيار والاصطفاء له وحده لا شريك له، وليس للخلق حق في ذلك أبداً، فيختار من يصطفيه للرسالة، ويختار ما شاء من الآيات والحجج، ويختار من يصطفيه للملك، ويختار من يصطفيه لكل شأن يريده. وبالتالي ليس لأحد أن يعترض على اصطفاء واختيار الله تعالى لأنبيائه، وليس له حق الاقتراح في ذلك. بل لم يكن للرسل اختيار أنفسهم للرسالة. فليس لأحد أن يختار على الله تعالى شيئاً. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ فليس لهم الاختيار. فينفي سبحانه وتعالى النفي القطعي من أن يكون لهم الاقتراح والاختيار.

ومن دقائق البيان ما ذكره ابن عاشور رحمه الله تعالى بقوله: وصيغة ﴿مَا كَانَ﴾ تدل على نفي للكون، ليفيد: أشد مما يفيد لو قيل: ما لهم الخيرة[١] وهي تأتي بمعنى آخر وهو: أن الله يختار لهم الأخير والأحسن. ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ بمعنى الاختيار، وبمعنى الأخير والأفضل. وسبب هذه الدلالتين هو حرف ﴿مَا﴾ ومدى ارتباطه بما قبله. فعند الوقف على ﴿وَيَخْتَارُ﴾ تكون ﴿مَا﴾ بمعنى النفي ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ فليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً، وأما في حال الوصل وعدم الوقف بأن يكون نص الآية الكريمة ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ تأتي بمعنى: يختار الله تعالى لهم الأخير والأفضل. وورد الاختيار عاماً ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ليشمل ما يكون متعلقاً بالناس من الأنبياء والمرسلين، وغير ذلك مما هو متعلق بالعباد.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٢٠/٨)

واما عن أولى الدلاتين، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والصحيح الأول، لإجماعهم على الوقف[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: نفي على أصح القولين[٢] ورجح ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى القول الثاني، فقال: وربك يا محمد يخلق ما يشاء أن يخلقه، ويختار لولايته الخِيَرَةَ من خلقه، ومن سبقت له منه السعادة[٣] والترجيح لا يعني نفي المرجوح أو إبطاله، بل تقديمه عل غيره على أنه الأولى. فرحابة النص الكريم بسياقه العظيم أعطى هاتين الدلالتين العظيمتين بنص وسياق واحد. وهذا من بلاغة البيان وإعجاز تراكيب ألفاظه. وهما معنيان متوافقان، وغير متعارضان. فليس لأحد أن يختار على الله تعالى، وكذلك أن الله تعالى يختار لعباده الأحسن والأفضل لهم. ومن اعترض فإنه لقصور عقله عن كمال مراد الله تعالى، وللكبرياء والاستعلاء الذي في نفسه.

واختيار الله تعالى شامل كذلك للأزمنة، والأمكنة، والعبادات، وأماكنها، وهيئتها، وما هو مُقَدس منها وما هو عام. فإنه ليس لأحد من خلقه له فيها شيء من الإرادة أو المشيئة والاقتراح والاختيار، فكله مقصور ومحصور لله تعالى، إلا أن يدعو الإنسان ربه سبحانه وتعالى فيستجيب له عَزَّ وجل بمشيئته واختياره وإكرامه للعبد بما طلب ودعا، كما طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن يجعل سبحانه وتعالى مكة بلداً آمناً ويرزق أهله من الثمرات، وكدعاء النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة، وغيرها من دعواته صلى الله عليه وسلم. وكدعاء بنت عمران لابنتها مريم، فأنبتها الله نباتاً حسناً، وكدعاء بعض المتقين من عباده، والمضطرين فيستجيب لمن يشاء من عباده.

ثم ينزه سبحانه وتعالى نفسه عن الشرك ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فَتَنَزَّه وتَمَجَّدَ وتقدس الله تعالى بذاته وصفاته عن شرك المشركين، وضلال المضلين. مما يشركون به من الأصنام والأنداد، فكيف يكون المخلوق شريك للخالق، والمربوب شريك للرب؟ فتنزه سبحانه وتعالى عن الشريك والشركاء. وفي هذا التنزيه من الخالق العظيم ما يدل ويؤكد بطلان الشرك من أصله، وأنه من غواية الشيطان للإنسان، كما يدل على انحدار عقل من اتخذ مع الله تعالى شريكاً.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم علمه ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وربك أيها النبي يعلم ﴿ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي: ما تخفيه صدور المشركين من الكيد والشرك، والكفر، والعناد، والنوايا الباطنة، ويشمل هذا العلم لله تعالى جميع الناس، وخص المشركين باعتبار سياق الموضوع وشأنه،

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٨٣/٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠٨/٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٩٨/١٨)

وكذلك يعلم ﴿ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ وما يظهرونه من الأقوال والأفعال، وبالتالي فإنه لا شيء يخفى عليه عَزَّ وجل، حتى ما يكون في ضمائر المشركين وغيرهم مما يسرون ويتكتمون عليه، مما يفيد أن الله تعالى بعلمه لما تُكِنّ الصدور، فإنه يكيد للعاصي والمعتدي، والظالم قبل إنفاذ معصيته بما يشاء من الكيد والخذلان. مما يغرس في المؤمن أهمية الدعاء والتوكل على الله تعالى. فيتبرأ من حوله وقوته وحساباته وتدبيره، ويتوكل ويعتمد على حول الله تعالى وقوته وعلمه، وعظيم تدبيره. وإذا ترسخت هذه المعرفة في قلب العبد بأن الله تعالى يعلم ما يُسر وما يعلن، جعلته يخاف الله تعالى، ويستشعر رقابته له ولغيره، فيعبده وكأنه يرى ربه يتابعه سبحانه وتعالى، وأنه يعلم ما يكنه في صدره من نوايا. فيستقيم سلوكه، ويتوقف عندما تجذبه الشهوات والفتن إليها، ويندفع للخير فعلاً وقولاً ونية. بل ويعيش في طمأنينة، لأنه يعلم أن الله يراه، ويرى من يريد الشر به، فلا تخفى عليه خافية، وأنه يعبد ويستعين بالعليم الخبير الرحمن الرحيم.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال ذاته، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى، وأنه المتفرد بصفة المحمود في الدنيا والآخرة على جميع ما خلق، وأنه القادر ذو السلطان العظيم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فهو الله الواحد الأحد، الذي لا إله غيره، الذي له المحامد كلها في الدنيا والآخرة. وله السلطان العظيم، وله الحكم والفصل بما يشاء، وإليه رجوع الخلائق. فاستهل تبارك وتعالى البيان بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ ﴾ فبدأ بما هو أخص، بلفظ الجلالة الذي انفرد به، وهو الاسم العظيم لربنا تبارك وتعالى، والذي يعني الإله والمعبود، ثم ألحق به إثبات وحصر العبودية له سبحانه وتعالى ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى، وبما يفيد أن كل معبود غيره فهو بغير حق. فينفي بذلك كل معبود غيره عَزَّ وجل. ثم أوضح جَلَّ جلاله أنه المحمود ﴿ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ الذي انفرد بصفة المحمود في الدنيا والآخرة على جميع ما خلق، فهو المحمود في خلقه، وفي أفعاله وتدبيره، وفي تشريعه وقضائه وسلطانه، وفي حكمه وعدله، وفي كل شيء، وهو الذي يجب أن يُحمد من جميع الخلائق، فليس لأحد من خلقه ما هو له من الحمد وكمال الثناء في الدنيا وفي الآخرة.

ثم يتدرج البيان بعد إثبات ما أثبته تبارك وتعالى لنفسه من الألوهية والربوبية والمحامد كلها في الدنيا والآخرة ليبين لعباده أن له الحكم ﴿ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ ﴾ وله السلطان الكامل والقضاء والفصل بعدله، وهو الذي لا معقب لحكمه، وهو القاهر الذي لا غالب له. ثم يبين لعباده أن مرجعهم إليه ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فإنكم أيها العباد راجعون لربكم يوم القيامة، فيقضي ويحكم بينكم بعدله وسلطانه، فيجازي كل واحد بما كسب في دنياه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وفي هذه الصفات والمحامد والسلطان لربنا تبارك وتعالى ما يعلم الإنسان وجوب

الخضوع لرب العالمين، وطاعته، والانقياد له، والعمل لما بعد الموت، فإن الجميع راجعون إليه، فيقضي بينهم بحكمه وعدله. فإنه بيان مليء بكمال المواعظ وأصنافها التي تُعَلِّم الإنسان وتهذبه مع ربه تبارك وتعالى، وفي نفسه، ومع غيره، وفي جميع شؤونه. مما يبين أن هذا الدين قائم على ثوابت وأسس من رب العالمين.

ثم ينتقل الاستدلال في تدرج عميق إلى آية من آيات الله عَزَّ وجل، وهي آية الليل فيما لو ثبتها الله عَزَّ وجل، ومنع النهار عن الدنيا. فيوجه الله تبارك وتعالى للمشركين سؤالاً يثير عندهم وعند كل أحد التأمل والتفكر إلى الحقائق، وإلى كشف كذبهم وإفكهم وافترائهم الشركاء من دون لله تعالى، بما يعبدون من الأصنام والأوثان وغيرها. فقال عَزَّ وجل ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ يخاطب الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأن يوجه هذا السؤال للمشركين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ قُلْ ﴾ قل يا أيها الرسول للمشركين ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ سؤال تقريري يقرر قدرة الله تعالى فيما لو جعل الليل من غير نهار، فإنه عَزَّ وجل هو الذي خلق الليل والنهار على ما تعيشون عليه. وكلمة ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ تفيد الرؤية القلبية والتخيلية لما قد يكون لو كان. فأخبروني إن جعل الله تعالى الليل ﴿ سَرْمَدًا ﴾ أي: دائماً مستمراً لا ينقطع، وبالتالي لا يبادله ولا يغايره النهار أبداً ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ حتى نهاية الحياة الدنيا بقيام القيامة. كيف ستكون الحياة؟ كيف سيكون حال الإنسان؟ كيف سيكون أمره مع الزروع والثمار؟ وكيف ستنمو الثمار والزروع من غير شمس، وكيف ستكون صحة الإنسان من غير شمس. وكيف ستكون حالة الإنسان في أعمال الحفر والتنقيب في الأرض والجبال؟ سلسلة من التأملات لا تنقطع، ليدرك الإنسان نعمة تتابع الليل والنهار بصورة دقيقة لا تتوقف، ولا تتأخر. فإنها آيتان ظاهرتان عظيمتان دالتان على وحدانية الله تعالى، وأنه رب كل شيء، ومالكه، والمتصرف فيه، وأنه هو وحده القاهر فوق عباده، وأنه المعبود الذي لا معبود سواه. وأنه المدبر، الرحمن الرحيم. فهي نعمة عظيمة، خاصة عندما يتخيل الإنسان ذلك الأمر السرمدي الذي لا ينقطع مدى الحياة.

ثم بعد إظهار ما يمكن أن يكون فيما لو جعل الله تعالى الليل سرمدا، يُظهر الله تعالى بطلان آلهتهم بهذا السؤال التعجيزي ﴿ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ من هو الإله الذي يمكنه أن يأتيكم ﴿ بِضِيَآءٍ ﴾ غير الله عَزَّ وجل فيما لو جعل الليل سرمدا. سؤال استنكاري لعقولهم التي تعبد المقهور العاجز، وتترك القهار القادر. فهل لكم من الآلهة التي تعبدونها من دونه عَزَّ وجل تستطيع أن تقوم برفع ظلمة الليل عنكم ﴿ بِضِيَآءٍ ﴾ أي: بنهار، فيمكنكم من خلاله أن تطلبوا معيشتكم، وتقضوا حوائجكم. وفي هذا بيان عظيم

لامتنان الله تعالى على جميع الناس والحيوان والنبات بتتابع الليل والنهار، فهو خطاب للمشركين لكنه اندمج معه الامتنان على الجميع بالليل والنهار. فهما آيتان ظاهرتان عظيمتان، ومتضادتان في هيئتهما، فهناك ليل بظلام دامس، وهناك نهار بضياء ساطع جلي، فهما آيتان مبهرتان في تناسخهما المتتالي العجيب في تكراره، وفي مدته وساعاته. وأثر كل واحد منهما على من يعيش على الأرض. فهو سؤال يكشف لهم عجز ما يعبدون من دون الله تعالى عن تحقيق ما يريدون فيما لو حصل ذلك. فإذاً لماذا تعبدون من دون الله تعالى العاجزين، وتتركون القادر العظيم؟ سؤال يستثير التفكير لغرس الإيمان عند الجاحدين، ويستثير النفس المؤمنة لتقوية الإيمان وزيادته. مما يبين ويؤكد وحدانية الخالق، وإبطال الشركاء بجميع أنواعهم. وأن الله تعالى يعالج إيمان العباد بالحقائق والبراهين من الآيات الكونية التي تُثبت أن الله تعالى هو الخالق ولمدبر لأمر الكون والعباد جميعاً، وإثبات وجوب الإيمان بحقائق الغيب الذي تدل عليه وتثبته مظاهر الكون.

ثم يختم الله تعالى هذه الآية الكريمة العظيمة التي تُحيي القلوب الغافلة بسؤال. فيقول عَزَّ وجل ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أفلا تسمعون هذا البيان سماع فهم وتدبر وتفكر وقبول. أفلا تتأملون ما أرشدناكم إليه، إنه سؤال اعتبار وتفكر، واستثارة للقلب والذهن والفكر، بعد أن أشبع البيان العقول بعظيم ما يمكن أن يكون فيما لو كان، فمن هو القادر على تعديل الليل، والمجيء والإتيان بضياء يزيل ظلمة الليل، فيظهر النهار من الليل. إنها آية عظيمة، وأسلوب عظيم في استثارة النفس والعقل.

مما يفيد أهمية تصور النعمة، وتصور حال تغيرها، أو انعدامها، أو قلتها، أو تغير هيئتها على وجه آخر، فكلمة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ تتطلب نقل الحقيقة على وجه آخر، بما يُفقدها فاعليتها وفائدتها، بحيث يستشعر الحال عند غيابها. فجملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ تفيد الرؤية البصرية والقلبية والتخيلية لما قد يكون فيما لو كان. فأخبروني إن جعل الله تعالى الليل سرمدا. فتخيل لو كانت الحياة ليلاً لا نهار فيه، وبالمقابل تخيل لو كانت الحياة نهاراً لا ليل فيه. إنه تعليم رباني، تعليم بالنعم، تعليم بالفقد للنعمة، ليدرك المتربي والموعوظ بها قيمتها. فالكثير من الناس لا يدرك قيمة النعمة إلا عند فقدها. اللهم اجعلنا من الذاكرين الشاكرين لإنعامك، واغفر لنا تقصيرنا في حقك يا ربنا، فما عبدناك حق عبادتك، وما شكرناك حق شكرك.

ثم يستثير الله تعالى عقول المشركين وعقول كل أحد من الناس بآية النهار المقابلة والمضادة لآية الليل ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وقل لهم يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فأخبروني فيما لو جعل الله تعالى الزمان كله

نهاراً مستمراً، لا ليل يتعاقب معه، فلا يتبدل النهار بليل نهائياً إلى نهاية الدنيا، وقيام القيامة. فقد أثبت سبحانه وتعالى في هذه الآية والتي قبلها أن يوم القيامة هو نهاية الدنيا. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ حيث تنتهي الدنيا مع بدية يوم القيامة. فكيف يكون حالكم؟

فيتدرج البيان الكريم بالمخاطبين وخاصة المعنيين به، وهم المشركون، إلى الذي يمكنه أن يُخَلِّصهم من ضياء النهار الذي لا ليل فيه، فمن هو الذي يستطيع أن يأتي لهم بليل يسكنون فيه ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ من هو الإله الذي يمكنه ذلك فيستطيع أن يأتيكم ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستقرون وتستريحون فيه من تعب ونصب ما تطلبون من المعيشة. فمن هو الذي يستطيع أن يأتيكم بالليل فيما لو أذهب الله عَزَّ وجل عنكم الليل؟ سؤال استنكاري لعقولهم التي تعبد المقهور العاجز، وتترك القهار القادر. وكذلك هو سؤال تقريري بأنه لا يستطيع ذلك إلا الله عَزَّ وجل الذي خلق الليل والنهار. فهل لكم من الآلهة التي تعبدونها من دون الله تعالى من يقوم برفع ضوء النهار عنكم ليحل الليل مكانه.

ثم يختم الله تعالى هذه الآية الكريمة العظيمة التي تُحيي القلوب الغافلة بسؤال عظيم من الله العزيز الكريم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أفلا تبصرون وترون ما أنتم عليه من الزيغ، أفلا ينير عقولكم ويُبَصِّركم هذا البيان بما يجعلكم تفهمون وتتدبرون وتتفكرون، وتتأملون فيما أرشدكم ربكم إليه، وأوضحه لكم، إنه سؤال اعتبار وتفكر، واستثارة للقلب والذهن والفكر، بعد أن أشبع العقل بعظيم ما يمكن أن يكون فيما لو كان، فمن هو القادر على تعديل النهار، والإتيان بالليل، لتتحقق لكم به منافع الليل. مما يفيد أنه لا غِنَى للإنسان عن الليل، ولا غِنَى له عن النهار، فحياته وطبيعته التي خلقها الله تعالى عليها في أمس الحاجة لتعاقب الليل والنهار وبالكيفية والقدر الزمني الذي قسمه الله تعالى، وأنه لا يُغني أحدهما عن الآخر. مما يتطلب أيضاً التأمل والتفكر فيمن واءم بين الحاجة والمحتاج لها، ومن الذي قدرها بالقدر الذي يحتاجها المخلوق، من غير زيادة ولا نقصان، فمن قدرها غير الله تعالى؟ الذي خلق الإنسان وخلق له ما يحتاج إليه، وواءم بين خصائصه وما يحتاجه مما يُشبع ويلبي به متطلباته، ثم بعد كل هذا الإنعام وهذه الدلائل العظيمة يذهب هذا المخلوق لمخلوق مثله فيصرف له ما هو حق لله تعالى؛ من العبادة والانكسار والتوحيد والطاعة، فإنه أمر عجيب.

ومن دقائق البيان أنه في آية النهار ختمها الله عَزَّ وجل بقوله تعالى ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بينما في آية الليل ختمها بقوله تعالى ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن الإبصار في آية النهار أظهر وأقدر، بينما يكون الإبصار في ظلام الليل أضعف وأهون، وربما لا يرى في بعض الأماكن شيئاً. فتبقى حاسة السمع في الليل هي الأظهر والأبرز من حاسة البصر. فذلك من دقائق الإعجاز في القدرة وفي البيان. ومن فوائد ذلك أهمية استخدام

الحواس فيما خُلقت له، من سماع الحق ورؤيته، وتدبره، بما يحقق للعبد الغاية من خلقه، وهي عبادة الله تعالى بما أمر وشرع.

فبعد أن ذكر تبارك وتعالى مفارقات نعمة الليل، ثم نعمة النهار، من خلال بيان التَخَيُّل فيما لو انفرد أحدهما عن الآخر، وفقد أحدهما للآخر، كيف يكون حالكم وشأنكم. ومن هو القادر على أن يُعيد ما فقدتموه من الليل، أو النهار فيما لو أفقدكم الله تعالى أحدهما. ثم بعد بيان فيما لو انفرد أحدهما عن الآخر ينتقل السياق بعدها إلى بيان فضيلة ونعمة تواجد وتعاقب الآيتين معاً: آية الليل، وآية النهار، وذلك بطريقة الدمج بين النعمتين في السياق، بعد أن أفرد غياب كل نعمة عن الأخرى، فيما لو حصل وكان ذلك. فهو تتالي وتعاقب بياني في غاية الاستثارة لمشاعر واستشعار نعمة الليل ونعمة النهار، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فإن من فضل رحمة ربكم عَزَّ وجل عليكم أن جعل لكم الليل والنهار متعاقبان ليتحقق لكم بهما السكون والراحة في الليل، وطلب أنواع الرزق والفضل في النهار، فيكون منكم شكر ربكم على هذه النعمة بالاعتقاد الصحيح، وباللسان، وبالعبادة الصحيحة، وذلك بتوحيده، وإفراده بالعبادة كما أخبركم به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

فقد بدأ البيان العظيم بلفت الانتباه إلى رحمته جَلَّ جلاله ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ فهذا التدبير بعض من رحمته عَزَّ في علاه، والتي بها ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ فقد بدأ البيان العظيم بأن جعل الله تعالى ﴿ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ ولم يُلحِق به من حيث الأسلوب كل واحد منهما بما يُحصله الإنسان فيه من السكن، أو ابتغاء الفضل. حيث دمج بعدهما المبتغى الذي يتحقق في كل واحد منهما على حدة عن الآخر، وهو قوله تعالى ﴿ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فبإدخال وتداخل تنوع التحصيل مع بعضهما البعض عن طريق الدمج بين النعمتين في السياق، جعل البيان في غاية الاستثارة لمشاعر الإنسان باستشعار نعمة الليل ونعمة النهار، مع غاية في جمال البيان، وتراكيب الكلام ﴿ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فالذي يسكنون فيه متعلق بالليل، والذي يبتغون فيه الفضل متعلق بالنهار. وورد السكن أولاً بينما ورد ابتغاء الفضل ثانياً بحسب الترتيب.

فيا أيها الناس المخاطَبُون بهذا القرآن العظيم، إن من رحمة الله تعالى بكم أن خلق لكم الليل والنهار رحمة وعناية بكم، وتفضلاً عليكم بهما. وبدأ البيان العظيم الكريم بإسداء رحمته ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ وفي جملة ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ ما يفيد أن هاتين الآيتين العظيمتين هما مفردتين اثنتين من جملة ومجموع رحماته المتعددة، والمتتالية عليكم، والكثيرة التي لا يحصيها أحد من خلقه جَلَّ جلاله. فعلى عظمتها فإنها بعضاً من رحمته، وإثنان

من فضله. ثم دمج بين نعمتي الليل والنهار مع تعيين وإظهار خصوصية كل نعمة على حدة، وبأسلوب فريد عظيم ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي: لتسكنوا في الليل، وتبتغوا الفضل في النهار، لأن الليل هو السكن بالنوم والراحة بعد عناء ومشاق الطلب المتنوع والمتعدد، وأما النهار فهو من أجل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فهو لطلب الرزق وقضاء الحاجات، فخصوصية النهار متعلقة بطلب المعاش، والمشي في مناكب الأرض، وقضاء الحوائج المختلفة، والسعي بالتجارة، ونقلها من مكان لآخر، وغير ذلك من ألوان السعي ومقاصده وعلله وأسبابه.

وقد أبرز الله تعالى إنعامه فيما يُطلَب ويُكتسب من متاع الدنيا بوقت النهار بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ والابتغاء هو الطلب، والذي يكون من المخلوق بالجهد واتخاذ الأسباب، وورد موقع الطلب أنه كائن على الفضل الذي هو لله تعالى ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي: من الأرزاق والمطالب المتنوعة، التي هي من عند ربنا تبارك وتعالى ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فتطلبون مطالبكم من فضله عَزَّ وجل.

ثم يستثير عباده إلى ما يجب عليهم تجاه هاتين النعمتين العظيمتين، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فالشأن هو أن تتذكروا فضل الله تعالى عليكم بهذا الإنعام العظيم فتشكرون الله تعالى عليها، باللسان، وبالعبادة الصحيحة، وإفراده بها. فمن أشرك وكفر فإنه لم يشكر، وأن من تمتع بها ولم يذكر الله تعالى فإنه لم يشكره كذلك، ومن لم يحمده عليها لم يشكر ربه عَزَّ وجل عليها. فالحمد كائن في القلب، وملتصق بالإنسان كل لحظة وحين، ومظهره الطاعة والامتثال لله رب العالمين. لأن إنعام الله تعالى على العبد ملتصق به لا يفارقه، حتى في منامه، فهو الذي يحفظه في نومه، وهو الذي يعيده للحياة بعد نومه. اللهم ارزقنا شكر نعمكم، وأَعِنَّا على ذلك، واغفر لنا تقصيرنا يا ربنا وخالقنا ورازقنا وأنت خير الرازقين.

ومن دقائق البيان أن ورد الفضل عاماً ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ليستوعب ما لا طاقة لأحد في إحصائه وتعيينه، كما سبقته ﴿ مِن ﴾ التي تفيد التبعيض لكثرته، فلا أحد يستطيع أن يجمع جميع فضل الله تعالى، فكل أحد يأخذ منه بما يعطيه الله تعالى له. ولذلك قال تعالى ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ لتحصلوا أرزاقكم من فضله الكثير والمتنوع. ليستوعب جميع مفردات مطالب وحاجات العباد كلهم، على تفاضل وتغاير بينهم، لك فيما يخصه ويحتاجه. مما يعزز عند المؤمن فهم التفاوت بين العباد في الرزق، فكل أحد آخذ بما يَسَّرَهُ اللهُ تعالى له من فضله. وبالتالي لا يحسد أحد أحداً، ولا يسابق أحد أحداً خشية أن يفوته شيء من فضل الله تعالى، فكل سيأخذ ما هو مقدر له من الفضل. وهذا الفهم والإدراك يغرس في المؤمن الطمأنينة وراحة البال والفكر.

فإن منهج الله تعالى وشريعته مدرسة وعلاج للإنسان في جميع شؤونه المختلفة. كما ورد طلب الرزق بلفظ ﴿ وَلِتَبۡتَغُواْ ﴾ والابتغاء هو: إرادة الشيء مع السعي في تحصيله، ليتبين أن تحصيل فضل الله تعالى يأتي بالسعي والحركة نحو تحصيله، وبما ينفي فكر التواكل، ويؤكد منهج الجمع بين السعي والتوكل على الله تعالى.

ثم يذكر الله تعالى ما يكون للمشركين من السؤال يوم القيامة عن شركائه الذين زعموا أنهم شركاء مع الله تعالى ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ واذكروا يا أيها الناس يوم توبيخ المشركين حين يناديهم المنادي عن عدم تحقيقهم لتوحيد ربهم ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ ﴾ اذكروا ذلك اليوم الذي يحصل فيه النداء لهم، وهو نداء ترويع، ونداء تهويل وتوبيخ، وتأنيب ﴿ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ﴾ أين الذين كنتم تشركونهم مع ربكم وخالقكم؟ أين هم اليوم عنكم؟ أين أولئك ﴿ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ أين المعبودات من غير الله تعالى التي كنتم ﴿ تَزۡعُمُونَ ﴾ أي: تفترون، وتُصِرُّون على عبادتها، وتزعمون كذباً وبهتاناً أنها تنفعكم، فأين هي اليوم؟ لِتُقَدِّمَ لكم النفع. وفي هذا إبطال من الله تعالى لجميع أنواع الشرك، بما يفيد التحذير للأحياء من الناس القائمين على الشرك. فإن الله تعالى موبخهم على ما كان منهم، وأنه يحشرهم إلى جهنم وبئس المصير.

ويستمر البيان في فضح حال المشركين يوم القيامة، وإظهار عجزهم عن الحجة والبرهان على شركهم الذي كانوا يزعمونه في الدنيا بهتاناً وكفراً مبينا، فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ وأخرجنا من كل أمة رسولها الذي يشهد عليها بالتبليغ، وبما كان منهم ﴿ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ﴾ فعن قتادة أنه قال: وشهيدها نبيها، يشهد عليها أنه بلغ رسالات ربه[١] وورد النزع بصيغة الماضي ﴿ وَنَزَعۡنَا ﴾ ليفيد التحقق. والنزع هو الأخذ للشيء مما اختلط معه وبه. والشهيد ﴿ شَهِيدٗا ﴾ هو الحاضر. قال القرطبي رحمه الله تعالى: والشهيد الحاضر. أي: أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم[٢] فكل شيء يوم القيام قائم على العدل والبرهان.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٦/١٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٤/١٣)

ثم يطالبهم الله تعالى بالحجة والدليل على صحة اتخاذهم الشركاء ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ قدموا براهينكم وحججكم على صحة ما كنتم تعبدون من دون الله عَزَّ وجل، وذلك لإظهار التعجيز الذي يُبطل به ما كانوا يزعمون ويفخرون به. فعند ذلك يتأكد لهم الحق ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ فأيقنوا حينها أن الحجة البالغة من الحق أنها لله تعالى عليهم، بأنه لا إله إلا الله عَزَّ وجل، وأن ما جاء به الأنبياء هو الصدق الذي لا ريب فيه ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ وهنا وفي هذا الموقف العظيم الرهيب لم ينطقوا بما كانوا يفترونه من الكذب في الدنيا، إذ غاب وذهب عنهم ذلك الوقت ما كانوا ﴿ يَفْتَرُونَ ﴾ أي: يختلقونه من الأباطيل، من أن مع الله تعالى آلهة تُعبد. فتعالى الله عما يقولون علواً كبيرا. فلم ينتفعوا بشركهم، بل أوردهم النار وبئس المصير. وفي هذا البيان فائدة التحذير من الشرك، وإبطاله، وأن الله تعالى يعاقب أهله بأشد العذاب، ويكون موقفهم يوم القيامة خزي وندامة، حين لا تنفعهم ندامتهم شيئاً. ونسأل الله تعالى السلامة والهداية والتوفيق.

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان قصة قارون الذي كان وزيراً لفرعون، وهو من قوم موسى عليه السلام، قال تعالى عن قارون ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ لقد ضرب الله تعالى الأمثال للمشركين بما يوافق أحوالهم من الأمم السابقة، وضرب لهم في تعاظمهم من حيث الأموال بقارون الذي كثرت أمواله على ما سيرد بيانه وتفصيله، فقال تعالى ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ وبدأ البيان الكريم بالتعريف بمن هو قارون، وما صلته بموسى عليه الصلاة والسلام. واستهل مطلع البيان بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده من الأخبار، ويمهد له بالاهتمام لما تضمنته قصة قارون من الأحداث المثيرة التي تثير التأمل وتُعطي العديد من العبرة والدروس.

وقد عَرَّف الله تعالى قارون بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ إن قارون المختلف والمضاد لموسى عليه السلام، هما من قوم واحد، من بني إسرائيل. وشتان ما بينهما. وهذا التعريف يستثير ويُظهر المغايرة والمضادة بين رجلين من قوم واحد. ومن بلاغة المقصد في البيان، أن الله تعالى نسب قارون لقوم موسى، بينما نسب القوم لموسى عليه السلام، بما يرفع من قيمة موسى عليه السلام، بأنه العلم المعروف، وأن قوم موسى يُعْرَفُون ويُنعَتُون بموسى عليه السلام لمقامه، وقارون على شهرته وكثرة أمواله إلا أنه يُنسب لهم من باب التعريف، وليس من باب التعاضد مع قومه، ولا يُنسبون هم إليه، بينما يُنسبون إلى موسى عليه السلام، وهو فرد، وذلك لشرفه ورفعته، فهو رسول الله وكليمه، ولتظهر المفارقة بين الأفراد، وأنها بالإيمان وليس بكثرة الأموال. وليفيد كذلك تحقير قارون من جهة، وإظهار قوة التباين بينهما، فبالرغم من أنهما ينتسبان معاً لبني إسرائيل إلا أن فخر القوم هو بموسى عليه السلام. ومن دقائق البيان كذلك إدخال ﴿كَانَ﴾ في السياق، إذ لم يقل سبحانه وتعالى: إن قارون من قوم موسى. بل أضاف كان لإضافة دلالة مهمة في البيان، وهو أن قارون كان من قوم موسى سابقاً، وبعد موته بالكفر تحقق خروجه عن قوم موسى المؤمنين. ليظهر الإعجاز البياني الدقيق، الذي وصل غاية كماله ودقته. فكل حرف وكل كلمة في القرآن لا يغني غيرها عنها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ابن عمه، وهكذا قال: إبراهيم النخعي، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وسماك بن حرب، وقتادة. ومالك بن دينار، وابن جريج، وغيرهم: أنه كان ابن عم موسى عليه السلام[١] فهو من بني إسرائيل، فيعود نسبه إلى إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام. وفي التنصيص على أن قارون من قوم موسى ليتبين في ذلك المفارقة العظيمة بينهما، فموسى يدعو إلى الحق والخير، بما اصطفاه الله تعالى به من النبوة والرسالة، وتكليم الله تعالى له، ونزول كتاب الله التوراة عليه، وبين قارون الفاجر الكافر الباغي على قومه، فبالرغم من أنه من قوم موسى عليه السلام، إلا أنه مختلف عنه تماماً، بل مناقض له. ليعطي درساً في الاختلاف، وأنه لا يلزم المماثلة بين أفراد القوم الواحد، كما هم قوم قريش، فمنهم محمد الرسول الأمين الصالح المصلح، ومن تبعه من المؤمنين، ومنهم من نحى منحى قارون بالبطر والتعالي بما آتاه الله تعالى من النعمة، كأبي لهب، وأبي جهل.

وكان من شأن قارون أن طغى على قومه ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: طغى على قومه من بني إسرائيل، وأجحف في حق قرابته. ودخوله في زمرة فرعون، مما جعله يبغي على قومه مجاراة لفرعون الذي أصبحت منزلة قارون منه أنه الوزير له. وقال الماوردي رحمه الله تعالى: أنه كان يخدم فرعون، فتعدَّى على بني إسرائيل،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٠٩)

وظلمهم. وقال الضحاك رحمه الله تعالى: أنه بغى بالكفر بالله تعالى(١) والبغي يفيد التعدي والتجاوز، والاستخفاف بحقوقهم، واستضعافهم، والاستقواء عليهم. ونبذ دينهم وشريعتهم، والاصطفاف مع فرعون. وفي هذ تنويه إلى التشابه بين من بغى وطغى من قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم وبين طغيان قارون على قومه، فهناك طغيان الفرد بالمال والجاه، وهناك طغيان الجماعة بالمكانة والمال والجاه. كما فيه صورة البغي من قارون على موسى عليه السلام، بمثل بغي من بغى من مشركي قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ليكون في ذلك عِبَر ودروس من أوجه لا حصر لها لمن تدبر فيها. فقصص القرآن للتدبر والتفكر والاتعاظ، بما يصل به الْمُخَاطَب إلى ما يريده الله تعالى به منه من الإيمان والتصديق وعمل الصالحات. وهي فوائد لا ينتهي معينها ورفدها.

ومن الفوائد أن البغي يجمع بين الشعور النفسي بالاستعلاء والتكبر، وبين التصرف العملي والفعلي مع الغير، وذلك لِمَا ينتج عن مشاعر المستكبر والمتعالي بما آتاه الله تعالى من الأموال العظيمة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ وفي هذا إخبار من الله تعالى بأنه هو الذي أنعم عليه بما أعطاه من الأموال العظيمة. وفي تسميتها بالكنوز ما يبين كثرتها التي احتاجت إلى مخازن لتخزينها، كما ورد (الكنز) بصيغة الجمع ﴿ٱلْكُنُوزِ﴾ ليدل على كثرتها وتنوعها، من الذهب والفضة، والمجوهرات، وغيرها مما كان سائداً في عصرهم.

ومن دقائق البيان دخول ﴿مِنَ﴾ على الكنوز ﴿مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ لتفيد التبعيض: فإن جميع ما أعطاه الله تعالى من الكنوز، فإنه بعضاً من عطاء الله عَزَّ وجل، فعند الله عطاءات لا حصر لها من الكثرة والتنوع، فالذي عند قارون هو شيء وبعض منه. بما يفيد كثرة وعظيم ما عند الله تعالى، كما نسب العطاء له عَزَّ وجل ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ فالذي آتاه تلك الكنوز هو الله سبحانه وتعالى. فبامتناننا عليه أعطيناه، بما يفيد أن الله تعالى قد يجزل العطاء للعبد ليرى ماذا يكون منه، أيشكر فَيُؤجَر، أو يبطر ويكفر، ويتعالى ويتباهى، كما أن من حكمته عَزَّ وجل أن يمنع عن العبد، ليرى منه، أيصبر فَيُؤجَر، أو يجزع فلا يؤجر.

ثم وصف تبارك وتعالى كثرة تلك الكنوز بوصف دقيق، وكأنك تراها وتشاهدها، فقال عَزَّ وجل ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ فمن كثرة ما أعطاه الله تعالى أن مفاتيح مخازن الكنوز ثقلت على عدد حامليها الكثيرين من الرجال الأقوياء المتعاضدين المتعاونين ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ وجملة ﴿مَآ إِنَّ﴾ أفادت التأكيد، تأكيد كثرة المفاتيح التي تستثقلها

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١١/٦)

العصبة من الرجال الأقوياء والكثيرين العدد، وأما حرف ﴿ مَآ ﴾ فيعني الذي. قال الزمخشري رحمه الله تعالى وعن المفاتيح: بأنها: جمع مِفتح بالكسر، وهو ما يُفتح به. وقيل هي الخزائن[١] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنها مفاتيح الخزائن التي تفتح بها الأبواب، قاله مجاهد، وقتاده، وروى الأعمش عن خيثمة، قال: كانت مفاتيح قارون وِقْر ستين بغلاً. وقال السدي، وأبو صالح، والضحاك أنها خزائن ماله. وقال الزجاج: وهذا الأشبه أن تكون مفاتحه خزائن ماله. وإلى نحو هذا ذهب ابن قتيبة. وقال أبو صالح: كانت خزائنه تُحمل على أربعين بغلاً[٢] مما يفيد كثرة مفاتيح الخزائن التي يثقل حملها العصبة من الرجال المتعاضدين المتكاتفين الأقوياء، ليؤكد وصف كثرة تلك المفاتيح على كثرة خزائنها، وعظمة ما فيها من الأموال التي تكاثرت أعداد البغال التي تحملها. فالذي أعطى قارون بفضله وحكمته فإنه قادر على أن يعطي غيره، فإذا أعطى الله سبحانه وتعالى فإنه يجب على من أعطاه أن يحذر من أن يكون مثل قارون.

فإن مجموع مفاتيحها من الثقل ﴿ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ ﴾ لتتثاقل بها العصبة من الرجال لثقلها، والعصبة: هم المجموعة الكثيرة. قال مجاهد رحمه الله تعالى: العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر، وعنه أيضاً: من عشرة إلى خمسة[٣] وقيل أقل، وقيل أكثر. فالعصبة هي الجماعة التي يشد ويؤازر بعضهم بعضا، تعاوناً وتعاضداً.

فاختيار لفظ العصبة لبيان كثرة العدد، مع قوة التعاضد. كما أفادت ﴿ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ ﴾ أن العصبة متصفين بالقوة البدنية، أي الجسمية. فتظافرت فيهم كثرة العدد، وقوة التعاضد بينهم في الحمل، مع قوة الأجسام، ومع ذلك أثقلت تلك العصبة ما تحمله من مفاتيح، وأصبحت تتثاقل بالنهوض والقيام بما تحمله من مفاتح خزائن الكنوز. وفي هذا دليل وصورة على شيء من عظيم ما يُعْطِي اللهُ تعالى لمن يشاء من عباده. وبما يفيد أيضاً الابتلاء والاختبار بالنعمة من الله عَزَّ وجل، أيشكر أم يبطر ويكفر. لتكون أحداث قصة قارون مثاراً للعبرة والاتعاظ.

ثم يُخبر الله تعالى بما حدث له من الوعظ والإرشاد من قومه له ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ ﴾ فوعظه قومه من أهل الصلاح والإيمان عن ما هو فيه من الفرح والخيلاء، ليدل على أن النهي عن المنهي عنه كان بسبب أنه قد حاد فيه عن الجادة والصواب والحق، فأخذ فيه مأخذ المؤاخذة من الأشر والبطر. فنقله من السرور الطبيعي، إلى الفرح الذي اختلط به ومازجه الفخر والخيلاء والبطر. وبالتالي فإن الفرح هنا مقيد بعدم محبة الله تعالى له، وذلك بقولهم له ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾ فالذي لا يحبه الله تعالى هو الفرح المنحرف

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٢٦/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١١/٦)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٦/١٣)

بما مازجه من التعاظم والتباهي والتفاخر، فانحرف به قارون عن مجرد الإعجاب الطبيعي، والسرور به إلى السرور الذي اعتضد وتمازج بالفخر والخيلاء والتباهي حتى على دين الله تعالى. فنهوه عن فرحه الذي تكابر معه، وتفاخر بالاستعلاء على غيره، واستصغاره واحتقاره لهم. مما يفيد الانتباه والحذر من الفرح الممزوج بالخيلاء والاستكبار، والأشر والبطر. والذي هو انشداد إقبال القلب إلى الشيء بالوجه الذي ينتج ويتمخض عنه التعلق القلبي والتولع به، ثم الانكباب عليه، فينسى حقوق الذي أعطاه وأكرمه به سبحانه وتعالى، ثم يرى أنه بقوته الشخصية وقدرته الذاتية قد تَحَصَّل عليه، ثم يفاخر به غيره، ويتعالى به على الناس بقلبه وفعله.

ويستمر الصالحون من قوم قارون في النصح إليه ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ والتمس واطلب ما عند الله تعالى من المثوبة في الدار الآخرة بما آتاك الله تعالى من الكنوز ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ فاجعل مالك زاد لآخرتك، وتحصيل الجنة، والنجاة من النار. ويكون ذلك بالإنفاق في أوجه الخير المختلفة. مما يفيد حرصهم على مصلحة قارون. فطلبوا منه التوازن بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ وفي نفس الوقت استمتع بما أعطاك الله تعالى فيما ينفعك في الدنيا، فليس المطلوب أن لا تبقي شيئاً لنفسك، بل وازن بين الأمرين. مما يفيد أهمية الموازنة عند التصرف في الأرزاق، بأن يجمع المؤمن بين تلبية حاجاته الدنيوية، وبين ما يحقق لنفسه الفلاح والفوز في الآخرة. وفي هذا غاية الموازنة بين الحقوق، فإن لله عليك حقاً، ولنفسك عليك حقا.

ومن دقائق النصيحة والموعظة أن قال له قومه عن ماله ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ على أساس أن الأصل في تصريف هذا المال هو في شأن الآخرة، وأن المعطي لها هو الله سبحانه وتعالى ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ فأسندوا الإيتاء من الكنوز لله تعالى. بينما خاطبوه عن أمر الدنيا ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ فلا تنس حظك من هذه الكنوز في أمر الدنيا، وكأنه لا يشغلك اهتمامك بالأصل الذي هو الآخرة عن حظك ونصيبك في الدنيا، فتنسى شأنك في الدنيا لانشغالك بالشأن الأعظم المتعلق بالآخرة. فلا يشغلك الأصل عن الفرع. لإفادة أن الأصل هو المبالغة في طلب الآخرة، حيث الجنة والحياة السرمدية الدائمة التي لا تنقطع، وأن نصيب الدنيا من الكنوز التي رزقك الله تعالى إياها هو إلى حين، لأنها منطقة عبور، ثم تتجاوزها بالتوقف والرحيل والانقطاع عنها، فانشغل بالدائم الباقي المستمر عن المؤقت المنقطع الزائل. فلقد تضمنت دقائق من الفوائد ودلالات النصح والوعظ العظيم.

وهي دروس ومعالجة لكل أحد من الناس، عندما يواجه منازعة نفسية نحو العطاء، وابتغاء الآخرة، فيخاطب نفسه بقوله تعالى ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ فإذا دفعته نفسه لمنع العطاء في أوجه الخير قال لنفسه ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ وإذا رأى ممتنعاً من الناس عن العطاء من الخير وعظه بقوله تعالى ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ وإذا رأى مشغولاً بلهو المال وعظه ونصحه بقوله تعالى ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ فهو توجيه وعظ وإرشاد وعلم عظيم لمن وفقه الله تعالى في إدراك مقاصده ودلالاته العظيمة. كما أن في وعظ للنفس بأن تجمع بين الاستمتاع بالنعمة وبين بذلها للآخرة.

ثم التوجيه له بالموازنة المتوافقة والمشابهة لإحسان الله تعالى إليه ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ فأحسن فيما أعطاك الله تعالى إلى غيرك بمشابهة إحسان الله تعالى إليك. فقد أجزل الله تعالى لك في الإحسان، فأجزل في الإحسان إلى غيرك. وكلمة الإحسان تجمع مجامع فعل الخير، فهو التصرف بما يجب أن يتصرف به من الخير. ثم النهي العام عن جميع أوجه الفساد ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ التحذير من طلب الفساد، باستخدام ما أحسن الله تعالى به إليك في الأوجه المضادة له، وهو الفساد المنافي والمضاد للإحسان. فلا تطلب ما حرم الله عليك بهذا الخير العظيم، من الأموال الطائلة. وفي هذا المقطع معالجة للنفس في حُسن التصرف مع المال والخير وعموم أرزاق الله تعالى. فيعالج المؤمن نفسه في الإحسان بدوام التذكر لقوله عَزَّ وجل ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ وإذا رأى من نفسه أو من غيره توجه نحو الفساد بالرزق خاطب نفسه وغيره بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إياك أن تطلب الفساد بما أحسن الله تعالى به إليك.

ولم يكتف قومه الصالحون بنصحه عن الفساد، بل ربطوا ذلك الامتناع عن الفساد بعموم الأرض، ليشمل أينما كنت في أرض الله تعالى فلا تُفسد، سواء كنت عند من يعرفك، أو خارج الأرض التي لا يعرفك فيها أحد، ففي ورود ربط النهي عن الفساد بالأرض كان عين الدقة في البيان، الذي جمع كمال وشمول التوجيه.

ثم دعموا ذلك التوجيه ببيان علة وسبب النهي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فتجنب واحذر بغض الله تعالى لك بالإفساد في الأرض، فإن الله سبحانه وتعالى لا يحب من يبتغي المعاصي، والبغي في الأرض. فلا

يتحقق فيك بغض الله تعالى ببغيك وفسادك. وبذلك فقد أسدل قومه له النصائح الحكيمة التي يتحقق له بها سعادة الدنيا والآخرة. وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تقرر نفي محبة الله تعالى للمفسد. ومحبته سبحانه وتعالى للمحسن الذي هو ضد المفسد، ليكون هذا التقرير وسيلة وموعظة لمعالجة النفس عندما يكون الفساد حالاً بها، فيعالجها بالتذكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وأيضاً وقاية أمام كل فساد يراه المؤمن أمامه، فيمتنع عنه بأن يتذكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وأيضاً دافع للامتناع عن الفساد كلما تذكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإنه منهج قائم لإصلاح النفس، والحياة، وقطع الفساد وإخماده.

وهنا رد قارون على قومه بالطوام من البغي الفكري، والمنطق والكلام والفهم العقيم السقيم ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فرد عليهم بتزكيته لنفسه، وتعظيم قدرته وفهمه ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فنفى بذلك موعظة قومه له كلياً، ونفى اعترافه بمضمونها ودلالاتها، وتوجيهاتها. وحصر وقصر ذلك بأداة الحصر ﴿إِنَّمَآ﴾ التحصيل الذي حصل به على ما عنده من الكنوز هو بناء على علمه الشخصي من الفهم بأوجه المكاسب، وفنون التحصيل، والحذق في ذلك. فنسب العلم لنفسه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى: إنما أوتيت هذه الكنوز على فضل علم عندي، عَلِمَهُ اللهُ مني، فرضي بذلك عني، وفضلني بهذا المال عليكم، لعلمه بفضلي عليكم. وأضاف رحمه الله تعالى أنه قد قيل: إن معنى ﴿عِندِىٓ﴾ بمعنى: إنما أوتيته لفضل علمي[1] فاستحقاقي هو بسبب ما عندي من العلم الذي أفضل به عليكم. قال الزجاج رحمه الله تعالى: ادَّعَى أنه أُعطي المال لعلمه بالتوراة[2] التي تمكن بها من تحصيل ما هو عليه من المال، وبالتالي أعطاه الله تعالى ما أعطاه كما يزعم هو، وهو ادعاء منه بذلك. فالفاسد دائماً يحاول تبرير فساده وطغيانه لترتاح نفسه، فيوهمها بذلك، حتى يُصَدِّق ما افتراه من الكذب.

وأفادت دلالة ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ أنه قد أُعطي هذا الخير من غيره له، وهو الله سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ على علم من الله تعالى أنني أستحقه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن دلالتها، بأن قارون

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٣٢٥-٣٢٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/١١٣)

يقول: أنا لا أفتقر إلى ما تقولون. فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي. فتقديره: إنما أُعطيته لعلم الله في أني أهل له[١] فجمع النص الكريم الدلالتين اللتين تضمنتا أوجه ما في نفسه عن الكنوز التي عنده، بأنه إنما أوتيه لفضل علمه ومهاراته، وكذلك يشمل اعترافه بأن المعطي له هو الله تعالى، وأن ذلك العطاء بناء على استحقاقه لذلك. بأن الله تعالى فضله عليهم لعلمه بأنه أفضل منهم، وليس تفضلاً لأنفقه كما تقولون به، أو اختباراً منه لي. وكلا المفهومين يحمل المغالطة. وبذلك بلغ ذروة الغرور والطغيان وجحود حق النعمة التي أودت به إلى التعالي.

مما يفيد أن الإنسان عندما يوفقه الله تعالى لتحصيل مراده من الخير، ويسخر له الأسباب، فلا يظن أن ذلك من فطنته، فيقول شارحاً ومبيناً حذاقته: ربحتُ وحَصَّلتُ وكسبتُ، بأن عملت كذا وكذا، بما يفيد أنه بحذاقته تَحَصَّل على ما نال من الخير، فيصيبه الغرور. بينما الصواب أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله تعالى هو الرزاق الذي وفقه بتهيئة الأسباب، ومزامنتها لتوفيق الله تعالى وإرادته حتى يتحقق له ما حَصَّلَه من الخير. وأنه لولا توفيق الله عَزَّ وجل لما فَطِن للأسباب، ولأوقعه جهله في الخسارة الفادحة. فإن الله تعالى هو الهادي والموفق.

فلما بلغ به الغرور ذلك المبلغ جاء له التهديد من الله تعالى، وذلك بإيراد ما حدث للمغرورين من قبله ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ فورد بيان الله تعالى بصيغة السؤال والاستفهام الذي يحمل دلالة الاستنكار والتعجب من فوات علم قارون عن إهلاك الله تعالى لمن كان قبله من الأمم التي كانت أكثر منه ثراء، وأشد منه قوة وقدرة. وتوجه الخطاب البياني لِلْمُخَاطَبين بالقرآن العظيم، ليفيد وعظهم به، أي وعظ غيره به ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون يا أيها الْمُخَاطَبين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أو لم يصل إلى علم قارون ما كان من شأن الذين أهلكهم الله تعالى من الأمم السابقة التي كانت ﴿أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ أشد منه في القدرة على نيل المرابح والمكاسب، أي: اقتداراً منه على أسباب التحصيل والتكسب ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للأموال، فلو كان كثرة الأموال تدل على الأفضلية عند الله تعالى لما أهلكهم. وبالتالي فما الذي يجعله في منأى عن إهلاكنا له كما أهلكنا من كان من قبله من الذين مكناهم وأعطيناهم أكثر مما أعطينا قارون. فإن فعله وقوله يستوجب الهلاك كما أهلكنا الأمم الباغية من قبل. وهو تقريع وتوبيخ لقارون، وتصرفه، وسُوء منطقه واعتقاده الفاسد.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤١٠)

ثم يخبر الله تعالى عن حال المجرمين يوم القيامة بشيء من التهويل الذي يفيد التحذير من ذلك الموقف العصيب عليهم ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ولا يسأل المجرمون عن ذنوبهم سؤال استعتاب واستعلام، لأنه لا حاجة للمعرفة والتحقق مما كان منهم، بل معروف ما كان منهم عند الله تعالى. وإنما السؤال لهم حين يُسألون يكون سؤال توبيخ وتقريع ولوم. قال الحسن: لا يسألون ليُعلَم ذلك من قبلهم، سئلوا سؤال توبيخ[١] فنفي السؤال لهم هو نفي سؤال التحقق والاستعلام، فهم معروفون بجرمهم، ولكنهم يُسألون سؤال تحقير وتأسيف لهم على صنيعهم، وتفويت حظهم من الخير بسوء صنيعهم، وظلمهم لأنفسهم.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بما كان من قارون في إظهار غروره واستعلائه وكبريائه على قومه بعد أن نصحوه ووعظوه بما يجب أن يكون عليه ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فخرج على قومه في كمال زينته تفاخراً وتباهياً بما عنده من الخير والكنوز، ليضيف بهذا الفعل على ذلك القول، عندما قال لهم ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ فخرج عليهم في زينته، ليعضد قوله بفعله، فحرف الفاء من قوله تعالى ﴿ فَخَرَجَ ﴾ يفيد العطف، عطف الخروج على قوله السابق ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ ليدل على عناده، واستشرافه بفكره وكنوزه على غيره، وعدم قبوله الحق ليهتدي به. ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ والزينة شاملة في دلالتها

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٣/٦)

لكل ما يتزين به الإنسان من الملابس، والمركوب، والخدم، والحرس، ونحو ذلك. لإظهار القوة والعلو والاستعظام على قومه.

وهنا انقسم الناس إزاء ما رأوا وانبهروا به من الزينة إلى فريقين: الفريق الأول: الذي اغتر بما رأى، وهاله ما شاهده من زينة قارون ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فالذين انبهروا بما رأوا، ممن جذبتهم زينة الدنيا، ورغبوا فيما هالهم من زينة قارون، قالوا: بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ ﴾ تمنوا قائلين ﴿ يَـٰلَيْتَ ﴾ رغبة وتمنياً ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ ﴾ يا ليت عندنا مثل ما أوتي قارون من زينة الحياة الدنيا. ثم وصفوه بما يفيد ويبين أنه الانبهار الشديد بما هو عليه من الزينة ﴿ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ إن قارون لذو نصيب وافر ضخم وفخم عظيم من زينة الدنيا. مما يبين ويوضح ويدل على أن فقد العلم بالدين يجعل المرء ينبهر بزينة الدنيا، ولو تمكن منها لانشغل بها، ولربما أخذته عن الهدف الأصلي من خلقه، وهو عبادة الله تعالى، فالْتَهَى بها في بُعد عما خُلق من أجله، وانشغل عن طاعة ربه بها. ولذلك من الأهمية بمكان أن يعلم الإنسان، وخاصة المؤمن بأن عليه التحرز من الانشغال بالدنيا عن الآخرة، وإذا تفضل الله عليه بمزيد من الخير فليجعله في طاعته الموصلة لنعيم الآخرة، ولا ينس نصيبه من الدنيا.

وأما الفريق الثاني: الذين اتصفوا بالعلم بشريعة الله تعالى، من التوراة، فقد كانوا على النقيض تماماً، فقال الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ وقال الذين تفضل الله تعالى عليهم بالعلم: انتبهوا واحذروا من غرور الدنيا، واتقوا الله وخافوه، فإن ثواب الله تعالى وجزاؤه خير وأعظم لمن تحلى بالإيمان وعمل بالصالحات، وصبر على ذلك بالاستمرار ومجاهدة النفس، وتحرز مما أبهر وفَتَن من الزينة. وسماهم الله تعالى بالذين أُوتوا العلم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ فقال أهل العلم بالله تعالى وبشرعه الحكيم، وبما وعد الله عباده المتقين في الآخرة، قالوا للذين أبهرتهم زينة قارون، وتمنوا مثلها ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ وهي كلمة زجر وعتاب على هذا الفهم السقيم. فاتقوا الله تعالى وأطيعوا ربكم. ومن فوائد ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ أن معناها اللفظي هو الدعاء على من تُقال له أو تُقال لهم، لأن الويل واد في جهنم. غير أنها هنا مقتصر على المعنى العام من التوبيخ والزجر. قال الزجاج

في معناها: ألزمكم الله ويلاً، ويجوز أن يكون على النداء[١] فهي تدل هنا على التقريع والزجر والتحذير، إذ يفهم ذلك من السياق بأنها هنا على محمل النداء الزجر والنهي عن ذلك القول الذي قالوه، لا على سبيل الدعاء. فهو للتهويل والتحذير، ليتوافق مع ما أمر الله تعالى به من لين القول في الموعظة، والذي يتوافق ويتناسب مع أهل العلم. مما يفيد ويبين فضل العلم في الفهم، وما يتحقق به من حُسن تقييم الأمور التقييم الحقيقي.

ثم انتقل أهل العلم في موعظتهم للذين يريدون الدنيا إلى التنبيه والتحذير من ذلك، بأسلوب الترغيب فيما عند الله تعالى ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فثواب الله تعالى وجزاؤه خير وأعظم مما أبهركم وفتنكم من الزينة، فإن ثواب الله تعالى كائن ومتحقق للذين اتصفوا وتحلوا بثلاث خصال: الخصلة الأولى: الإيمان ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ بأركان الإيمان: آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. والخصلة الثانية: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وعمل بالدين الذي جاءت به رُسُل الله سبحانه وتعالى. والخصلة الثالثة التي نوه عنها أهل العلم هي: الصبر ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ فقد نَوَّهَ أهل العلم بأهمية الصبر من خلال أسلوب القصر ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ فقصروا تحققها على من صبر. أي: ولا يُوَفَّق لقول هذه الكلمة والعمل بها أمام المغريات، والتي هي ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ إلا من اتصف بالصبر ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ لأن تطبيقها يحتاج إلى مجاهدة النفس على التزامها، وعدم الغرور بزينة الحياة الدنيا. ليكون ذلك موعظة لهم عن كيف يتعاملون وينظرون لزينة الحياة الدنيا وزخرفها، حتى لا تجرفهم عن طاعة الله عَزَّ وجل، وتأخذهم نحو الهاوية، كما هو حال قارون. مما يبين فضل أهل العلم، ومنزلتهم، وأهميتهم في وعظ غيرهم، وأنهم قدوات بين الناس، سواء بأعمالهم أو بما ينبهون غيرهم عليه، كالتحلي بالأخلاق والعمل بمنهج الله تعالى.

وهذا الوعظ والبيان العظيم قوة للإرادة عندما تستهوي الإنسان الدنيا عن الآخرة، فيقول واعظاً بها نفسه: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وإذا رأى غيره يتحسر على زينة الدنيا، قال له ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وإذا رأى أنه يتفلت إليها قال لنفسه ولغيره ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ فهي غاية في وعظ النفس وزجرها عند انجذابها وانعطافها عن الآخرة نحو الدنيا. اللهم بصرنا وعلمنا، وزدنا علماً وعملاً يقربنا منك، ويُرضيك عنا.

---

[١] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٠٦)

ثم يُخبر الله تعالى كيف عاقب قارون ببغيه على قومه فيما آتاه الله تعالى من الكنوز، إذ لم يستخدمها ويستثمرها فيما يقربه من ربه تبارك وتعالى، بل رأى من نفسه أنه المستحق لما آتاه الله من الكنوز، وحكم على نفسه بأنه مستوجب لذلك. فقال تعالى عن عقوبته لقارون ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ فقد عاقبه الله تعالى بالخسف ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي: غيبه الله تعالى في باطن الأرض مع داره التي يسكنها، وما حوته من كنوز. ليكون موعظة لغيره، الذين يتكبرون ويبطرون على غيرهم، وعلى نعمة ربهم، وينسبون النعمة لقدراتهم، وعلمهم ومهاراتهم.

والخسوف هو تكسر الأرض، بدخول ظاهرها في باطنها بمن عليها، وابتلاع من على سطحها في باطنها. ومن دقائق العقاب ودقائق البيان أن حصر الله تعالى الخسف به وبداره، بما يفيد أنه لم يتعد إلى غيره ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ فحصر الخسف عليه وعلى داره وما فيها من الكنوز.

ثم أخبر عَزَّ وجل عن عجز جنوده وأعوانه عن نصرته مما حل به من الخسف، لبيان أنه لا راد لقضائه سبحانه وتعالى مهما كانت القوة والتحرز ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فلم تكن له جماعة من مناصريه قادرة على نصرته. من أولئك الذين كان يعدهم لنصرته ومنع الاعتداء عليه، فما استطاعوا أن يدفعوا ويمنعوا عنه ما حل به من الخسف، وبالتالي لم يكن من الممتنعين عما أصابه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ فلم يكن ممتنعاً علينا، فينصر نفسه. فقد تعطلت قوته وقوة أعوانه ونُصَرَاءُه من أن يكن لهم نصر ومنعة من بأسنا. فما كان ممتنعاً على الله تعالى حين حلت به نقمة وعذاب الله عَزَّ وجل. بما يشير إلى ضعفه، وضعف من كان يتقوى ويتمظهر بهم حال تفاخره. ليدل على ضعف المخلوق مهما استقوى على غيره من المخلوقين. فإنه في حكم وإرادة الله أضعف ما يكون. وفي هذا غاية الموعظة، بأن لا يغتر الإنسان بماله أو جاهه، أو عقله، أو علمه، أو ذكائه وفطنته. بل يجب أن يسدل العطاء لله تعالى، وأن يتواضع اعترافاً بأن ما هو فيه من خير وفضل هو لله العزيز الحكيم، وأن الذي أعطى هو الذي يمنع ويزيل، ويغير ويبدل ويُضعف، فله الحكم والحكمة عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى بحال الذين تمنوا أن يكون لهم من الزينة مثل ما كان لقارون، والذين وعظهم أهل الصلاح بأفضل وأجل المواعظ والإرشاد. فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ

﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فالذين كانوا يتمنون مثل ما عند قارون قد غيروا فكرهم ونظرتهم وفهمهم، إذ حصل منهم سرعة الندامة والتأسف عندما رأوا الهلاك الذي أصاب قارون. ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ فأصبح الذين بالأمس القريب يتمنون ﴿ مَكَانَهُۥ ﴾ ومنزلته، يتغيرون اليوم في فكرهم وتمنيهم وحكمهم على هيئة قارون وزينته وأمواله وكنوزه عندما شاهدوا الحدث الذي غير حكمهم، فَحَصَلَ لهم الانتباه واليقظة بحادثة الخسف به وبداره، فمنطقهم اليوم أنهم ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ فيقولون معلنين ومصرحين بقولهم لغيرهم **(وي)** عجباً وندامة على ما كان مِنَّا. وهي كلمة تفيد التعجب، وتحمل دلالة التأسف والتندم والتفجع على ما كان منهم، وتفيد المفاجأة بما لم يكن متوقعاً، ليقرروا بخلاف ما كانوا عليهم من الفهم والحكم. ولتعدد دلالات **(وي)** فإن الذي يُظهر نوع مدلولها هو مجريات السياق التي هي فيه. مما يفيد أن الأحداث تغير وتصحح لأهل الحق مفاهيمهم، بينما يمتنع عن الإفادة منها أهل الطغيان والفساد.

وللفائدة عن تفاصيل ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ ما قاله العلماء عنها: فقد ذكر الزمخشري رحمه الله تعالى: أن **(وي)** مفصولة عن **(كأن)** وهي كلمة تنبيه على الخطأ، وتَنَدُّم. ومعناه: أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فتندموا ثم قالوا ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وكلمة ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ عند الأخفش وقطرب مركبة من ثلاث كلمات: **(وي)** وكاف الخطاب، وحرف **(أن)**. فأما **(وي)** فهي اسم فعل، بمعنى: أعجب. وأما الكاف، فهي لتوجيه الخطاب تنبيهاً عليه. وأما **(أن)** فهي أخت **(إن)** فالتقدير: اعجب يا هذا من بسط الله الرزق لمن يشاء[٢] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى ما ملخصه: أنها بمعنى: (ألم تر) قاله ابن عباس وأبو عبيدة. وقال الفراء (ويك أن) في كلام العرب: تقرير. أي: تفيد التقرير. وبمعنى: ويلك اعلم أنه. وبمعنى التعجب. وبمعنى: أظنه وأعلمه[٣]

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٣٠/٣)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٣٨/٨)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٥/٦)

فأصبح الذين ﴿ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ ﴾ أي: بالوقت القريب، يقولون اليوم ﴿ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ ﴾ فيقولون معلنين تندمهم وخطأهم، بأسلوب التوجع والتعجب والندم ﴿ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ ﴾ إن الله تعالى يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويُضيق على من يشاء بحكمته. بما يفيد أن التوسعة ليست دليلاً على أنه الأخير والأفضل، أو أن محبة الله تعالى متحققة له، فإنه ليس هناك ارتباط بين كثرة العطاء وبين المحبة، وبالتالي ليس هناك ارتباط بين قلة الرزق وبين بغض الله تعالى. بل يبسطه بحكمته ومشيئته. وفي نفس الوقت يكون الرزق للبعض بقدر محدد محدود ﴿ وَيَقۡدِرُ ﴾ أي: يضيق على من يشاء من عباده، ولا يعني ذلك بغضه لمن قدر عليه رزقه، بل قد يكون عند الله تعالى المحظوظ بالإنعام يوم القيامة. ليعطي ذلك الحدث من الخسف بقارون علماً في فهم دلالة الأرزاق، بأنها تحت مشيئة وحكمة الله تعالى، فهو أعرف بعباده.

ثم لَمَّا أدركوا ذلك من عاقبة قارون قالوا ﴿ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ ولولا أن الله تعالى مَنَّ علينا برحمته وفضله فلم يعاقبنا على الذي قلنا ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ لحصل لنا الخسف كما خسف الله تعالى بقارون، ولجمعنا به في العذاب. ثم أكدوا ذلك بخسارة الكافرين، مبتدئين كلامهم بدلالة الاعتبار والتوجع والخوف ﴿ وَيۡكَأَنَّهُۥ ﴾ فيقررون بعدها بخسارة الكافرين في الدنيا وفي الآخرة ﴿ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ إنه لا يفوز ولا يفلح الكافرون. وورد نفي الفلاح بصيغة المضارع الذي يفيد ملازمة الخسارة لهم طالما هم كافرون، فلم يتوبوا ويتركوا كفرهم.

فبهذا الحدث العظيم لقارون اتعظ الذين كانوا يتمنون مكانه بالأمس القريب، وعرفوا حقيقة الدنيا، وحقيقة العطاء، وحقيقة لطف الله تعالى، وحكمته سبحانه وتعالى في المنع والعطاء، وتقدير الأرزاق وفق مشيئته وحكمته العظيمة. مما يُوجب على المؤمن أن يفهم ذلك فهماً حكيماً، ويتعامل معه وفق سنة الله تعالى وحكمته، بما ينعكس على سلوكه وفكره وطمأنينته. وأن الآخرة هي دار القرار التي يلزم المؤمن العمل لها؛ ومن أجلها. فما الحياة الدنيا إلا من أجل الآخرة. اللهم ألهمنا الصواب، ووفقنا لطاعتك وفق شريعتك ومنهجك الحكيم.

﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ

هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

بعد عرض تفاصيل قصة قارون، وما كان من استعلائه في الأرض، ورفضه موعظة أهل الصلاح من قومه، وخروجه عليهم في زينته متفاخراً ومتباهياً، ثم أهلكه الله العزيز الحكيم بالخسف، وحصل الوعظ والاتعاظ لمن كان بالأمس القريب يتمنى أن يكون له مثل ما لقارون من الزينة. فبعد تلك الأحداث ينتقل السياق الكريم إلى الترغيب في الآخرة، ببيان صفات من تكون لهم الدار الآخرة، فوزاً ونعيماً ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يخبر الله تعالى بأن الفوز بالدار الآخرة وما فيها من الجنان هي للذين لا يستكبرون في الأرض بالبغي والأشر، ولا يتعالون على الإيمان وطاعة الرحمن، ولا يحبون البغي والاستعلاء، ولا يرغبون في الفساد. لعلمهم أن العاقبة المحمودة خاصة بالمتقين، الذين يتقون الله تعالى في جميع شؤونهم، خوفاً وطمعاً، فجمعوا بين الخوف الذي يُبعدهم عن المعاصي، والطمع فيما عند الله تعالى، الذي يقربهم إلى العمل بالصالحات، والتزام الطاعات.

وقد بدأ السياق الكريم باسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ بقصد التعظيم والتفخيم للدار الآخرة، ولشأنها، والتي تشير إلى الجنة، التي عرفت أيها الْمُخَاطَب شأنها ومكانها ومنزلتها في الآخرة ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ ﴾ وجاء نعتها بالدار الآخرة، توصيفاً ومقابلة لها بالدار الدنيا، التي تمثل الدنو عن الآخرة، وتتصف بالانقطاع والانتهاء. بينما الدار الآخرة هي التالية لما بعد الدنيا. وهي التي تعلوها في جميع ما يتعلق بها. فتلك الدارة الآخرة التي سَمِعْتَ وعرفت خبرها وشأنها يا أيها الْمُخَاطَب ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ نخص بها، ونجعلها للذين اتصفوا بثلاث صفات: الصفة الأولى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لا يطلبون العز والشرف والرفعة والتكبر على غيرهم من المؤمنين. والصفة الثانية: ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ ولا يطلبون العمل بالمعاصي. قال الشوكاني رحمه الله تعالى في تحرير المقصود بالعلو والفساد: أن في ذِكر العلو والفساد منكرين في حيز النفي، يدل على شمولهما لكل ما يطلق عليه أنه علو، وأنه فساد، من غير تخصيص بنوع خاص. أما الفساد، فظاهر أنه لا يجوز شيء منه كائناً ما كان. وأما العلو فالممنوع منه ما كان على طريق التكبر على الغير، والتطاول على الناس، وليس منه طلب العلو في الحق، والرئاسة في الدين، ولا محبة اللباس

الحسن، والمركوب الحسن، والمنزل الحسن[١] مما يدل ويفيد بأن المقصد هو ما يظهر على التصرف، فإذا كان مقصد المؤمن تحصيل المنافع والانتفاع بها، ونفع الناس بما ينتفع به من غير استعلاء، فليس ذلك في شيء من الاستعلاء، وأما إذا كان على سبيل التفاخر والتعالي والتظاهر فهو العلو الذي يحول بين صاحبه وبين الفوز بالدار الآخرة. وهو غالباً ما يظهر على سلوك وأعمال وتصرفات المتكبر.

وأما الصفة الثالثة: فهي إجمال لتحصيل الصفتين السابقتين مع غيرها من جوامع الوصف وكمال السيرة ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وهم المتقون الذين ابتعدوا عن معصيتهم لله تعالى، وأدوا فرائضه. أولئك الذين يتقون الله تعالى في جميع شؤونهم، خوفاً وطمعاً، فجمعوا بين الخوف الذي يبعدهم عن المعاصي، والطمع فيما عند الله تعالى مما يدفعهم ويقربهم للعمل بالصالحات، والتزام الطاعات.

ثم يخبر اللهُ سبحانه وتعالى بجزاء من يعمل الحسنات في الدنيا ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فمن جاء إلى ربه يوم القيامة ﴿ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ وهي توحيد الله تعالى، وما يتبعها من الايمان والعبادات، وسائر الطاعات. والأعمال الصالحة، فلهم من الله تعالى أفضل وأحسن وأخير مما فعلوا من الحسنات، فالجزاء أعظم مما عملوا، وذلك بدخولهم الجنة، والفوز بها. وقد وردت لفظة الحسنة عامة ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ لتشمل مع توحيد الله عَزَّ وجل جميع الأعمال والأقوال الصالحة المُلْحَقَةُ بالتوحيد اعتقاداً وعملاً. قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: الحسنة: لا إله إلا الله[٢] وقال الطبري رحمه الله تعالى في معناها: من جاء اللّهَ بتوحيده، والإيمان به، وقول لا إله إلا الله، موقناً به قلبُه[٣] ومن فوائد دلالة الحسنة: أنها تأتي بمعنى قول: لا إله إلا الله. وتأتي بمعنى العموم: ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن هناك قولان في معناها: الأول: قول: لا إله إلا الله. والسيئة: الشرك. قاله ابن مسعود، ومجاهد، والنخعي. والثاني: أنه عام في كل حسنة وسيئة[٤]، وللسياق أهمية في تحديد ذلك. فمن جاء لربه سبحانه وتعالى بالحسنة ﴿ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أي: فله أجل وأعظم مما قدم من الحسنات، فلهم

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٨٨/٤)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦١/١٣)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣٩/١٨)
(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٨/٣)

من الله تعالى أفضل وأحسن وأخير مما فعلوا من الحسنات، فالجزاء أعظم مما عملوا، وذلك بدخولهم الجنة، والفوز بها.

ثم أخبر تبارك وتعالى بجزاء من جاء بالسيئة عدلاً منه وإنصافاً ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فمن جاء إلى ربه يوم القيامة ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: المعاصي، وأعلاها الكفر. قال المفسرون: هي الشرك[١] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الذين أشركوا[٢] وهي جامعة لكل ما نهى الشارع عنه نهي تحريم، من الشرك، والكفر والمعاصي المحرمة، وما يتبعها من الأعمال الخبيثة، في الاعتقاد والأعمال والأقوال. قال ابن جرير رحمه الله تعالى عن معناها: ظلم الناس بغير حق، وعملاً بالمعاصي[٣] وفي شموليتها ما يفيد التحذير بالوقاية من السيئات ومفرداتها، وأعلاها الكفر بالله تعالى. فالذي جاء بالسيئة يكون جزاؤه كما قال تعالى ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فيكون جزاؤه على قدر ما عمل من السيئات، نوعاً وكثرة. فالسيئات أنواع ودرجات، وأعلاها الكفر. وهنا لم يضاعف العقوبة على صاحب السيئة، بل يعاقب بما يماثلها، بينما المضاعفة تكون لمن عمل الحسنة، فتضاعف إلى عشرة أضعاف، وإلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى. وهذا من كرمه عَزَّ وجل مع من أطاعه، وأيضاً عدله مع من عصاه. فسبحان الله الكريم الذي لا يظلم أحداً من عباده أبداً.

ثم ينتقل السياق في خاتمة السورة الكريمة إلى تبشير النبي صلى الله عليه وسلم بعودته إلى مكة، قاهراً وظاهراً على أعدائه، من الكفرة المشركين، فقال تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ إن الذي أعطاك القرآن، واختارك له، فأنزله عليك، وأوجبه عليك، وفرض العمل به، والتمسك بما فيه، وتبليغه للناس، فإنه لرادك إلى المكان الذي كنت فيه، وأُخْرِجتَ منه، وهو مكة.

فالرد هو إعادة الأمر أو الشيء إلى ما كان عليه. وهو عودتك إلى مكة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قال جمهور المفسرين: أي: مكة[٤] قال الزمخشري رحمه الله تعالى: أن الذي حَمَّلَك صعوبة هذا التكليف لَمُثِيبَك

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٤/٦)

(٢) المرجع السابق (١١٦/٦)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٤٣/١٨)

(٤) الشوكاني، فتح القدير (١٨٨/٤)

عليه ثواباً لا يحيط به الوصف. أي معاد ليس لغيرك من البشر. وقال أيضاً: ووجه تنكير المعاد ﴿ مَعَادٍ ﴾ أنه كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن، ومرجعاً له اعتداد، لغلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها، وقهره لأهلها المشركين، ولظهور عز الإسلام وأهله، وذل الشرك وحزبه[١] فهو معاد له شأن عظيم. إذ أفاد تنكير ﴿ مَعَادٍ ﴾ التعظيم لمكة، والتعظيم لشأن العودة، والتعظيم لمنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم، والتعظيم لأمر الله تعالى ووعده أنه حق كائن كما وعد عَزَّ وجل.

وبدأت هذه البشارة العظيمة من الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم بالتأكيد الذي يفيد التحقق، والاهتمام، حيث بدأ مطلع الخبر بحرف ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يفيد توكيد ما بعده من البيان. وقد حقق الله تعالى ذلك بأعز انتصار، فدخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة عنوة، ومن غير حرب وسفك دماء، بل استسلم القوم بقدرة الله تعالى وتدبيره العظيم. كما جيء بالاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِى ﴾ ولم يُذكر اسم الجلالة، وربطه بالذي فرض عليه القرآن، وهو الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ليفيد عظيم شأن القرآن العظيم، وعظيم شأن تكليفك به أيها النبي صلى الله عليه وسلم، وعظمة فرضه عليك من ربك تبارك وتعالى، مع بيان قوة وتأكيد العلاقة بين إنزال القرآن الكريم وعودتك إلى معاد، إلى مكة. فالذي فرض عليك كلامه فرض عودتك إلى مكة، فإنه كلام عظيم مهيب، ووعد عظيم جليل. وأنه كائن ومجزوم بتحققه. ليعلم صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بما سيكون قبل أن يكون، فيكون ذلك الوعد وتحققه آية عظيمة على عظيم قدرة الله تعالى، وآية على نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم، وآية على صدق كل ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام. لينغرس الإيمان في القلوب، ويزداد به الذين آمنوا إيماناً.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله للمشركين ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فقل لمن كذبك يا أيها النبي ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ فإن ربي هو الأعلم بمن جاءكم يحمل الهدى معه، الذي ينير الطريق في الدنيا، والطريق للآخرة، وهو الصراط المستقيم الذي جاءكم به. فهو أعلم بالمهتدي مِنَّا، الذي جاء بنصوص الهدى ومنهجه، بما يفيد: قد علم ربي أني جئت بالهدى. وكذلك هو أعلم بمن هو على ضلال ﴿ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وربي أعلم كذلك بمن هو منغمس في ضلال الكفر والشرك، الذي ينتفي عنه الاهتداء. وسماه سبحانه وتعالى ﴿ ضَلَٰلٍ ﴾ ليفيد أنه متاهة في السوء والانحراف الذي تدورون وتسيرون فيه من غير محصلة نافعة تصلون به إليه. وأكد عَزَّ وجل هذا

(١) الزمخشري، الكشاف (٦/٤٣٢-٤٣٣)

الضلال بالوضوح الظاهر ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فلا يحتاج إلى إيضاح من قوة ظهور وجلاء متاهته الضالة. ومما يفيد: وأن ربي عالم بأنكم في ضلال واضح ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر بَيّنٌ، لا لبس ولا شك فيه.

وهو بيان بأسلوب المتاركة لهم، والمقارنة بين مسارين متضادين، ليستثير فيهم التأمل والتفكر بهذا الأسلوب العظيم، وإلا فإن الجميع يعرف منهج الهدى الذي جاء به صلى الله عليه وسلم، وأنه عين الهدى والحق، لأنه لا يأمر إلا بمعروف، ترغبه النفوس، وتطلبه وتحبه الفطر السليمة، وتستطيبه العقول اللبيبة، ولا ينهى إلا عن منكر، تُبغضه وتكرهه الفطر السليمة والعقول النظيفة. مما يبين أن من الأساليب الجاذبة والدافعة للتفكر بعد بيان الحق والصواب هو المتاركة والموادعة.

ثم يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن عدم علمه بأنه سيحظى بشرف نزول القرآن العظيم عليه ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فما كنت أيها الرسول تأمل وترجو أن نُنَزِّل عليك القرآن، ونُرسِلُكَ به رسولاً، فما كنت تدري ما الكتاب. ولا تعرف عنه شيء ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إلا أنها رحمة من ربك حظيت بها. قال الكسائي رحمه الله تعالى: هو استثناء منقطع بمعنى: لكن[1] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: والاستثناء منقطع، أي: ولكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك[2] وبهذه الرحمة التي من ربك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تكن بهذا القرآن الذي أنزل عليك قوة وسنداً للكافرين. قال الفراء رحمه الله تعالى: هذا استثناء منقطع، والمعنى: إلا أن ربك رحمك فأنزله عليك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: عوناً لهم على دينهم، وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه، فَأُمِر بالاحتراز منهم، والخطاب بهذا وأمثاله له، والمراد أهل دينه، لئلا يُظاهروا الكفار، ولا يوافقوهم[3] كما يفيد هذا البيان وهذا الأسلوب تعظيم هذا الأمر للمؤمنين، فإذا كان قد وُجِّه النهي للرسول صلى الله عليه وسلم، فمعناه في حق غيره أظهر ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا يكن ذلك وسيلة منكم للتقارب معهم من خلال موافقتكم لهم على ما هم عليه من الكفر. مما يفيد تعظيم النهي للمؤمنين عموماً عن إظهار ما يدل على موافقتهم، واستحسانهم لفعل الكفار. بل يجب إظهار بطلان ما هم عليه من الكفر. فتوجيه النهي للنبي صلى الله عليه وسلم أفاد أيضاً تعظيم هذا الشأن الذي يجب أن يبتعد عنه المؤمنون تمام الابتعاد.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١٢/١٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (١٨٨/٤)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٨/٦)

ثم يوجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بتوجيه وتعليم آخر، فقال تعالى ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فأمره سبحانه وتعالى بثلاث أوامر غاية في الأهمية: فالأمر الأول: متعلق بالموانع والعوائق التي يفتعلها المشركون ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ ولا يصرفونك أعداء الدين عن آيات الله تعالى وحججه وعن تلاوتها على الناس، وتبليغها، والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ بعد أن شرفك الله تعالى بإنزالها عليك وتكليفك بها فرضاً عليك. بما يفيد: لا تلتفت لأقوالهم وطعونهم وكذبهم، وأذاهم، فامض واستمر في شأنك الذي كُلِّفت به. فهي منهجية لكل داعٍ إلى الخير، ولكل سالك لطريق الحق، ومريد للأهداف السامية أن تتحقق، فعليه بأن لا يلتفت لمن يُقلل ويُهوِّن من شأنه، أو من عزيمته، بل يمضي قدماً في شأنه وسبيله، ولا يلتفت للمثبطين نهائياً.

والأمر الثاني: متعلق بالاستمرار في الدعوة إلى الله تعالى ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ فبعد بيان منهجية العمل والتعامل مع المثبطين، ممن يريد الخذلان للرسول صلى الله عليه وسلم، يأمره عَزَّ وجل بتأكيد الاستمرار في دعوة الناس إلى الله تعالى بما أنزله ربك عليك من القرآن العظيم، وعلى رأسها الدعوة إلى التوحيد، بإفراد الله تعالى بالعبادة، والعمل بفرائضه، واجتناب ما نهى عنه. فإنها تأكيد لمنهجية الاستمرار والعبور بين الذين يُشاقون رسالة الله تعالى.

والأمر الثالث: تعريض، متعلق بعدم الإشراك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فلا تكوناً من المشركين في شيء. قال السعدي رحمه الله تعالى: لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه، التي هي جميع المعاصي[١] قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والخطاب بهذا وأمثاله له، والمراد أهل دينه، لئلا يُظاهروا الكفار، ولا يوافقوهم[٢] وهو تأكيد لما سبق من قوله تعالى ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ فلا تكونن في شيء من شركهم رغبة في استدراجهم لدينك. مما يفيد عدم استخدام الملاينة بالمداهنة في الدعوة إلى الله تعالى. وهو توضيح للمؤمنين في مسيرة دعوتهم إلى الله تعالى، وهو بيان لركن من أركان الإيمان، بالحذر من الشرك، كما هو بيان لركن من أركان الدعوة إلى الله تعالى، حتى لا يكون من المؤمنين شيء من ذلك، فورد بالأسلوب الذي يُعظِّم به خطورة المنهي عنه، من خلال نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عنه.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/٤٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/١١٨)

ثم ختم الله تبارك وتعالى سورة القصص بتأكيد النهي عن الشرك، والانخراط في جماعة المشركين، من خلال توجيه النهي إلى مقام النبي صلى الله عليه وسلم وذلك تعريضاً لغيره به. للمبالغة في النهي، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ وفي ختام سورة القصص يخاطب الله عَزَّ وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بأربعة أمور: الأمر الأول: إخلاص العبادة لله وحده لا شريك، من خلال النهي عن الإشراك به في العبادة ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ لا تعبد يا أيها النبي مع الله تعالى معبوداً آخر. وهو من باب التعريض لغيره، بما يتحقق به تعظيم النهي عن الشرك، حتى أنه وجهه لرسوله صلى الله عليه وسلم. فإن الله تعالى لا يرضاه ولا يقبله من رسوله عليه الصلاة والسلام، فكيف سيرضاه ممن هو دونه من الناس. بما يفيد القطع ببطلانه نهائياً، فالناس جميعاً منهيين عنه، كما نُهي رسولهم عنه، وهو خير البرية صلى الله عليه وسلم.

والأمر الثاني: يقرر وحدانية الله عَزَّ وجل ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فليس هناك إله إلا هو جَلَّ جلاله. وبالتالي كل إله غير الله عَزَّ وجل هو مُخترَع ومُبتَكر لا حقيقة له. وبالتالي أبطل سبحانه وتعالى كل شريك مزعوم له سبحانه وتعالى. والأمر الثالث: تقرير هلاك الخلائق كلها إلا هو سبحانه وتعالى الباقي الذي لا يموت ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ﴾ كل شيء زائل بالفناء إلا الله تبارك وتعالى، هو الباقي الذي لا يموت ولا يفنى جَلَّ جلاله. وهذا إبطال آخر لكل معبود أشركه الناس مع الله تعالى زعماً وباطلاً منهم. فالهالك لا يكون معبوداً أبداً. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إخبار بأنه الباقي، الحي القيوم، والذي تموت الخلائق، ولا يموت، كما قال تعالى في سورة الرحمن ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ ﴾ فَعَبَّر عن الوجه بالذات[١] وفي إثبات هلاك وزوال المخلوقين، دليل على بطلان كل مألوه ومعبود غير الله تعالى، فإن مَن في حقه الهلاك فلا يستحق أن يكون معبوداً، فمعناه أن كل هالك ليس له حول ولا قوة، ولا إرادة، ولا قدرة على جلب خير، أو دفع شر. والذي يُهلكه ويفنيه هو الذي ينفرد بالعبادة وبالربوبية، والألوهية، وبهذا يتحقق بطلان كل معبود غير الله عَزَّ في علاه، فكيف يعبد المشركون المهلوك الزائل؟ فهو استدلال بالحقائق الكائنة حتماً.

والأمر الرابع: إثبات وقصر الحكم وكمال القضاء والتصرف على ذاته سبحانه وتعالى، والرجوع إليه للحساب والجزاء بعد فناء الجميع ﴿ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فإن ربكم الواحد الأحد، الذي لا إله غيره،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤١٤)

يقضي بما يشاء، ويحكم بما أراد، وقضاؤه نافذ. ومرجع الجميع إليه سبحانه وتعالى. وفي هذا تقرير الحقيقة، بأن لله تعالى العظمة والسلطان والقدرة والفصل والقضاء. فجملة ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ إثبات بأن الحكم له وحده عَزَّ وجل، من الملك والتصرف وكمال السلطان والقهر والعز، والفصل والقضاء بما يشاء. فهو الذي يجمع الخلائق بعد الفناء، وهو الذي قصر كمال السلطان عليه عَزَّ وجل من كل وجه. كما أن له الحكم بين خلقه دون غيره يوم القيامة. ويُثبت سبحانه وتعالى أن المرجع والعودة إليه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه تُرَدُّون يوم البعث بعد موتكم، فيقضي بينكم بحكمه وعدله. فيثبت تبارك وتعالى أن الموت ليس هو نهاية الإنسان، بل إن الإنسان راجع إلى ربه بعد موته، بالبعث والنشور، بما يُثبت به الحساب والجزاء لكل واحد بما كان منه، سواء كان خيراً أو شراً، ويعفو عمن يشاء برحمته سبحانه وتعالى.

وبهذا تكتمل آيات سورة القصص بهذا التقرير العظيم لوحدانية الله عَزَّ وجل، وإبطال الشرك والشركاء، ونبذ كل ما يُعبد من غيره عَزَّ وجل، بل وفناء كل معبود من دونه سبحانه وتعالى، وأن له كمال الحكم والسلطان، ورجوع الخلائق إليه جَلَّ جلاله.

تم بحمد الله إتمام سورة القصص، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.